ميتش ألبوم

خمسة تقابلهم في الجنة

"رواية تصالحك مع الحياة"

المركز الثقافي العربي

ميتش ألبوم

خمسةٌ تقابلهم في الجنة

رواية

ترجمة: إيهاب عبد الحميد

الكتاب
خمسةٌ تقابلهم في الجنة
تأليف
ميتش ألبوم
ترجمة
إيهاب عبد الحميد
الطبعة
الأولى، 2019
الترقيم الدولي:
ISBN: 978-9953-68-931-9
جميع الحقوق محفوظة
© المركز الثقافي العربي
الناشر
المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء ـ المغرب
ص.ب: 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651
فاكس: +212 522 305726
Email: markaz.casablanca@gmail.com
بيروت ـ لبنان
ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء
شارع جاندارك ـ بناية المقدسي
هاتف: 01 750507 ـ 01 352826
فاكس: +961 1 343701
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

العنوان الأصلي للرواية:
Mitch Albom
The Five People You Meet in Heaven
© 2003 by ASOP, Inc.
All rights reserved

أهدي هذا الكتاب إلى إدوارد بيتشمان، خالي الحبيب، صاحب الفضل في أن أكوّن أول أفكاري عن الجنة. كل عام، حول مائدة عيد الشكر، كان يتحدّث عن تلك الليلة في المستشفى، عندما استيقظَ ليرى أرواح أحبابه الراحلين يجلسون على حافة الفراش، في انتظاره. لم أنسَ تلك القصة قَطّ. ولم أنسه قَطّ.

كلٌّ منّا لديه فكرة عن الجنة، وكذا كل دين، وكل الأفكار يجب أن تُحترم. والنسخة التي ستقرأها هنا ما هي إلّا تخمين، أمنية، على نحو ما، أن يُدرِك خالي، ومن هم على شاكلته -الناس الذين لم يشعروا بأهميتهم هنا في الحياة الدنيا- أخيراً، كم كانوا مهمّين، وكم كانوا محبوبين.

النهاية

هذه قصة عن رجل اسمه إيدي، وتبدأ من النهاية، من موت إيدي تحت الشمس. قد يبدو غريباً أن نبدأ قصة من نهايتها. لكن كلّ النهايات بداياتٌ أيضاً. فقط لا نعرف ذلك في وقتها.

الساعة الأخيرة من حياة إيدي قضاها، مثل معظم ساعات حياته، في روبي بير، تلك الحديقة الترفيهية المقامة على لسان بحري يشقّ محيطاً رماديّاً هائلاً. كانت الحديقة تضمُّ الألعاب والمغريات المعتادة: ممشىً خشبيّاً، وساقية عملاقة، وقطاراً أفعوانيّاً، وسيارات تصادم، وكشكاً للحلوى، وصالة ألعاب حيث يمكنك إطلاق قذائف مائية في فم مهرِّج. كما كانت فيها لعبة جديدة كبيرة تسمّى «هاوية فريدي»، وعند هذه اللعبة سيلقى إيدي مصرعه، في حادثة ستتناولها الصحف في أرجاء الولاية.

عندما حان أَجَل إيدي، كان شيخاً مسنّاً، بديناً، أبيض الشعر،

له رقبة قصيرة، وصدرٌ برميليّ، وساعدان غليظان، ووشمٌ باهت من أيام الجيش على كتفه الأيمن. كانت ساقاه قد صارتا رفيعتَين ومعرّقتَين، وكان التهاب المفاصل قد أنهك ركبته اليسرى، التي أصيبت في الحرب. كان يمشي بمساعدة عصا. كان وجهه عريضاً وخشناً من الشمس، بشعيرات صبغها ملح البحر بلونه، وفكّ سفليّ بارز قليلاً، ما جعله يبدو فخوراً كثيراً بنفسه على غير الحقيقة. كان يمشي بسيجارة وراء أذنه اليسرى وحلقة مفاتيح معلّقة بحزامه. كان ينتعل حذاءً ذا نعل مطاطي ويعتمر طاقية من الكتان. كان زِيُّه البنيّ الشاحب يُظهره عاملاً أجيراً، وعاملاً أجيراً كان.

كانت وظيفة إيدي «صيانة» ألعاب الركوب، وهو ما يعني الحفاظ على سلامتها. بعد ظهر كل يوم، كان يتجول في الحديقة، يعاين كل لعبة، من الصحن الدوّار إلى ماسورة الغطّاسين. كان يبحث عن ألواح مكسورة، مسامير مفكوكة، قطعة معدنية متآكلة. أحياناً كان يتوقف، بعينَين خاليتَين من كل تعبير، مَن يمرُّ به يظن أن ثمة مشكلة. لكنه كان يُصغي السمع، هذا كل شيء. فبعد كل تلك السنين أصبح بإمكانه أن يسمع المشكلات، هكذا كان يقول، في تفتفات وتأتآت وقرقعات المعدّات.

في آخر 50 دقيقة له في الحياة الدنيا، قام إيدي بجولته الأخيرة في روبي بير. مرَّ بزوجَين عجوزَين.

غمغم وهو يلمس طاقيته: «مرحباً».

أومآ برأسيهما بأدب. كان الزبائن يعرفون إيدي. الزبائن المنتظمون على الأقل. كانوا يرونه صيفاً بعد صيف، وجهه من تلك

الوجوه التي تَقرنها بمكان ما. وكانت ثمة شارة على صدر قميصه مكتوبٌ عليها «إيدي» فوق كلمة «صيانة»، وأحياناً كانوا يقولون: «أهلاً يا إيدي صيانة»، لكنه لم يعتبر ذلك مزاحاً لطيفاً.

كان اليوم، هكذا شاءت الصدفة، عيد ميلاد إيدي، عيد ميلاده الـ 83. كان أحد الأطباء قد أخبره، الأسبوع الماضي، أنه مصاب بالقوباء. قوباء؟ لم يعرف إيدي حتّى معنى الكلمة. ذات يوم، كان رجلاً قويّاً قادراً على رفع حصان من لعبة «الخيول الدوّارة» في كل ذراع من ذراعيه. كان ذلك منذ زمن بعيد.

«إيدي!»... «خذني يا إيدي!»... «خذني!».

قبل وفاته بأربعين دقيقة، شقّ إيدي طريقه إلى مقدمة طابور لعبة القطار الأفعوانيّ. كان يركب كل لعبة مرة أسبوعياً على الأقل، ليتأكد من ثبات الفرامل وانضباط نظام التوجيه. اليوم كان يوم القطار -«قطار الأشباح»، كما كانوا يطلقون عليه- وراح الأطفال الذين يعرفون إيدي يناديونه لكي يركبوا معه في العربة.

كان الأطفال يحبون إيدي. لا المراهقون. المراهقون كانوا يصيبونه بالصداع. على مرّ السنين، ظنّ إيدي أنه رأى كل أنواع المراهقين الذين لا يفعلون شيئاً مفيداً، الذين يزمجرون في وجهك. لكن الأطفال كانوا مختلفين. كان الأطفال ينظرون إلى إيدي -الذي بدا دائماً، بفكّه السفلي البارز، مبتسماً، مثل دلفين- ويثقون فيه. ينجذبون إليه مثلما تنجذب اليد الباردة إلى النار. يحتضنون ساقه. يلعبون بمفاتيحه. وكان إيدي ينخر عادةً، لا يتكلم كثيراً. أدرك أنهم يحبونه لأنه لا يتكلم كثيراً.

الآن كان إيدي يتابع صبيَّين صغيرَين بطاقيّتَي بيسبول مقلوبتَين

إلى الوراء. تسابقا إلى العربة وسقطا فيها. أعطى إيدي عصاه لحارس اللعبة ونزل ببطء بينهما.

«ها نحن ننطلق.. **ها نحن ننطلق!...**»، هكذا صاح أحد الصبيَّين، بينما سحب الآخر ذراع إيدي حول كتفه. أنزلَ إيدي حاجز الأمان **وكلاك-كلاك-كلاك**، انطلقوا إلى أعلى.

ثمة قصة متداولة حول إيدي. عندما كان صبيّاً، يترعرع بجوار هذه الملاهي نفسها، اشتبك في خِناقة أزقَّة. كان خمسة صِبية من شارع بتكين قد حاصروا شقيقه، جو، وكانوا على وشك أن يبرحونه ضرباً. كان إيدي على بعد ناصية منهم، جالساً على دَرَج أحد البيوت، يأكل ساندويتشاً. سمع صرخة شقيقه. ركض باتجاه الزقاق، وأمسك بغطاء صفيحة قمامة، وأرسل اثنين من الصِّبية إلى المستشفى.

بعد ذلك، لم يكلِّمه جو لشهور. كان يشعر بالعار. كان جو الأخ الأكبر، البِكر، لكن إيدي هو الذي تصدّى للعراك.

«هل يمكن أن نلعب جولة أخرى يا إيدي؟ **أرجوك؟**».

أربع وثلاثون دقيقة على انتهاء حياته. رفع إيدي حاجز الأمان، وأعطى كل صبيّ قطعة حلوى، واسترجع عصاه، ثم مضى يَعرُج إلى ورشة الصيانة لكي يُنعش نفسه من حرّ الصيف. لو عرف أن موته وشيكٌ، لربما ذهب إلى مكان آخر. لكنه فعل ما نفعله جميعاً. واصل روتينه المملّ وكأن أيام العالم كلها لا تزال أمامه.

أحد عمّال الورشة، شاب نحيف، نحيل الوجنتَين، اسمه

دومينغيز، كان بجوار حوض المذيبات، يمسح الشحم عن إحدى العجلات.

قال: «يو، إيدي».

وقال إيدي: «دُوم».

كانت الورشة تعبق برائحة نشارة الخشب. كانت مظلمة ومزدحمة، لها سقف واطئ وجدران عليها ألواح لتعليق الأدوات عُلّقت عليها مثاقب ومناشير ومطارق. وكانت أجزاء هيكليّة من ألعاب الملاهي متناثرة في كل مكان؛ مكابس، مُحرّكات، أحزمة، لمبات، الجزء العلوي من رأس قرصان. وقد كُدّست إلى جوار أحد الحوائط صفائح قهوة مملوءة بالمسامير والبراغي، بينما كُدّس إلى جوار آخر عددٌ لا يحصى من عُلب الشحم.

كان إيدي يقول إن تشحيم قضبان لعبة الملاهي لا يتطلّب عقلاً أكثر من غسيل الصحون؛ الفارق الوحيد أن هذا العمل لا يجعلك أنظف، بل يزيدك اتّساخاً. وكان هذا هو العمل الذي يمارسه إيدي؛ يدهن الشحم، يعدّل الفرامل، يحكم ربط المسامير، يفحص اللوحات الكهربائية. كثيراً ما تمنّى لو يترك هذا المكان، لو يجد عملاً آخر، لو يشيِّد حياة من نوع مختلف. لكن الحرب جاءت. ولم تتحقّق خططه قَطّ. وبمرور الزمن، وجد شعره يشيب، وسراويله تتسع عليه، ووجد نفسه يصل إلى حالة قبول منهَك، أنه هكذا وسيظل هكذا، رجلاً حذاؤه مملوء بالرمل في عالم من الضحك الميكانيكي والسجق المشوي. مثل والده من قبله، مثل الشارة على قميصه، كان إيدي صيانة -رئيس الصيانة- أو كما يُطلق عليه الأطفال أحياناً، «رجل الألعاب في رويي بير».

ثلاثون دقيقة تبقّت.

قال دومينغيز: «إيه، كل سنة وأنت طيب، سمعتُ».

نَخَر إيدي.

«لا حفلة ولا شيء؟».

نظر إيدي إليه وكأنه مجنون. فكّر للحظة في مدى غرابة أن تكبرَ سنة بعد سنة في مكان يفوح برائحة حلوى غَزْل البنات.

«طيّب، تذكّر يا إيدي، أنا في إجازة الأسبوع القادم، بدءاً من الاثنين. سأذهب إلى المكسيك».

أومأ إيدي برأسه، وقام دومينغيز برقصة صغيرة.

«أنا وتيريزا. سنذهب لرؤية العائلة كلّها. احتفاااال».

توقّف عن الرقص عندما لاحظ إيدي يحدّق فيه.

قال دومينغيز: «هل ذهبتَ من قبل؟».

«ذهبتُ؟».

«إلى المكسيك؟».

تنهّد إيدي من أنفه. «يا بنيّ، أنا لم أذهب إلى أي مكان إلّا مشحوناً بصحبة بندقية».

راقب دومينغيز وهو يعود إلى الحوض. فكّر للحظة. ثم تناول حزمة نقود من جيبه وأخرج الورقتين الوحيدتين من فئة عشرين دولاراً، ومدّهما إلى الأمام.

قال إيدي: «هاتِ لزوجتك شيئاً لطيفاً».

نظر دومينغيز إلى النقود، ثم افترّ ثغره عن ابتسامة عريضة، وقال: «هيا يا رجل. هل أنت متأكد؟».

دفع إيدي النقود في كفّ دومينغيز. ثم عاد إلى منطقة التخزين. كانت «فتحة صيد» صغيرة قد حُفرت في ألواح الممشى الخشبي قبل

سنوات، ورفع إيدي الغطاء البلاستيكي. شدَّ خيطاً من النايلون ساقطاً لمسافة 25 متراً إلى البحر. كانت قطعة السجق لا تزال عالقة في الشصّ.

صاح دومينغيز: «هل اصطدنا أي شيء؟ قل لي إننا اصطدنا شيئاً».

تعجّب إيدي كيف للشاب أن يكون متفائلاً هكذا. لم يسبق لأي شيء أن عَلِق بذلك الخيط.

صاح دومينغيز: «يوماً ما، سنصطاد سمكة هلبوت».

«نعم»، دمدم إيدي، وإن كان يعرف أنك لا تستطيع سحب سمكة كبيرة هكذا من فتحة صغيرة هكذا.

ست وعشرون دقيقة على انتهاء حياته. اجتاز إيدي الممشى الخشبي إلى الطرف الجنوبي. كانت الحركة بطيئة. كانت الفتاة وراء منضدة كشك الحلوى تستند على مرفقيها، تُفرقع عِلكتها.

في سابق الأيام، كانت ملاهي روبي بير المكانَ المفضّل للجميع في الصيف. كنت تجد فيها أفيالاً وألعاباً ناريّة ومسابقات رقص ماراثونيّة. لكن الناس لم يعودوا يذهبون إلى الملاهي الصغيرة على ألسنة المحيط؛ أصبحوا يرتادون مدن الملاهي الكبيرة حيث تُقطع تذكرة ثمنها 75 دولاراً وتُلتقط صورة لنفسك مع شخصية خيالية عملاقة جسدُها مغطّىً بالفرو.

مرَّ إيدي وهو يَعرُج من أمام سيارات التصادم وثبّت عينَيه على مجموعة من المراهقين يستندون على الدرابزين. قال لنفسه: **عظيم، هذا بالضبط ما أحتاجه.**

«ابتعدوا»، قالها إيدي، وهو يضرب على الدرابزين بعصاه. «هيا. هذا خطر عليكم».

حدجه المراهقون بنظرة ناريّة. كانت أعمدة السيارات تُطقطق بأصوات الكهرباء، زززاب زززاب.

كرَّر إيدي: «خطرٌ عليكم».

تبادل المراهقون النظرات. أحد الصبية، له خصلة شعر مصبوغة بالبرتقالي، رمق إيدي بنظرة استهزاء، ثم تقدم إلى الدرابزين الأوسط.

صاح، وهو يلوح للسائقين الصغار: «هيا يا أولاد، اخبطوني. اخبطو...».

ضرب إيدي الدرابزين بعنف شديد حتى كاد يقسم عصاه نصفين. «ابتعدوا».

ولاذ المراهقون بالفرار.

ثمة قصة أخرى شاعت عن إيدي. عندما كان جنديّاً، اشتبك في القتال مرات عديدة. كان شجاعاً. بل نالَ قلادة على شجاعته. لكن مع اقتراب نهاية خدمته، تعارك مع أحد زملائه. هكذا أُصيب إيدي. لم يعرف أحد ما الذي حدث للرجل الآخر.

ولم يسأل أحد.

مع تبقّي 19 دقيقة فقط في الحياة الدنيا، جلس إيدي للمرة الأخيرة، على كرسي شاطئ قديم من الألومنيوم. ذراعاه القصيرتان المفتولتان معقودتان مثل زعانف الفقمة على صدره. ساقاه محمرَّتان من الشمس، والندوب لا تزال ظاهرة على ركبته اليسرى. في

الحقيقة، حين تنظُر إلى جسد إيدي يُهيّأ لك أنه خرج من معركة ضارية. كانت أصابعه معقوفة بزوايا غريبة، بفضل الشروخ العديدة التي أصابته بها آلاتٌ متنوعة. وكان أنفه قد كُسر عدة مرات فيما أسماه «خِنَاقات الحانات». وربما بدا وجهه ذو الفكّ العريض وسيماً ذات مرة، مثلما يبدو ملاكمٌ محترفٌ قبل أن يتلقّى عدداً هائلاً من اللكمات.

الآن يبدو إيدي مُتعَباً فحسب. كان ذلك مكانه المعتاد على ممشى روبي بير، وراء لعبة «الأرنب النَّطّاط»، التي كانت «الصاعقة» في الثمانينيات، و«الثعبان الحديدي» في السبعينيات، و«أرجوحة المصَّاصات» في الستينيات، و«ضحكة في الظلام» في الخمسينيات؛ والتي كانت قبلها «مسرح غبار النجوم».

في هذا المكان التقى إيدي بمارغريت.

في كل حياةٍ لقطةٌ واحدةٌ للحبّ الحقيقي. بالنسبة إلى إيدي، جاءت تلك اللقطة في ليلة سبتمبريّة دافئة بعد عاصفة رعدية، كان الممشى الخشبي فيها قد صار إسفنجيّاً من كثرة المياه. كانت ترتدي فستاناً قطنيّاً أصفر، وتضع في شعرها مشبكاً ورديّاً. لم يقل إيدي الكثير. كان متوتراً جدّاً حتى أنه شعر أن لسانه ملتصق بأسنانه. رقصا على موسيقى فرقة موسيقية كبيرة العدد، «ديلاني طويل الساقين وأوركسترا المستنقعات». اشترى لها ليموناً فوّاراً. قالت إنها يجب أن تذهب قبل أن يَغضب أبواها. لكن وهي تمضي بعيداً، استدارت ولوَّحَت له.

تلك كانت اللقطة. لبقيّة حياته، وكلّما فكر في مارغريت، كان إيدي يرى تلك اللحظة، وهي تلوِّح من فوق كتفها، وقد سقط شعرها

تلاشى صوت المنادي. وتراجع إيدي إلى الوراء غير مُصدّق.

هناك، جالساً في كرسي، وحيداً على الخشبة، كان رجلٌ في منتصف العمر، له كتفان منحنيتان ضيّقتان، عارياً من الوسط فما فوق. بطنه متدلٌ فوق حزامه. شعره حليق. شفتاه رفيعتان ووجهه طويل وممصوص. كان إيدي لينسى هذا الرجل منذ زمن طويل، ما لم يُذكِّره ملمحٌ واحدٌ مميّز.

كان جلدُه أزرق.

قال: «أهلاً يا إدوراد. كنتُ أنتظرك».

أوّل شخص يقابله إيدي في الجنة

«لا تخف...»، قالها الرجل الأزرق، وهو ينهض ببطء عن كرسيه. «لا تخف...».

كان صوته مهدئاً، لكن إيدي لم يسعه إلّا أن يحدّق فيه. لم يعرف هذا الرجل إلّا بالكاد. فلماذا يراه الآن؟ كان أشبه بأحد تلك الوجوه التي تظهر لك في أحلامك وفي الصباح التالي تقول: «لن تخمّن أبداً بمن حلمتُ ليلة أمس».

«تشعر بجسدك وكأنه طفل، صحيح؟».

أومأ إيدي برأسه.

«لقد كنتَ طفلاً عندما عرفتني، هذا هو السبب. أنت تبدأ بالمشاعر نفسها التي كانت لديك».

أبدأ ماذا؟ فكّر إيدي.

رفع الرجل الأزرق ذقنه. كان لجِلده لون بشع، لون التوت الأزرق حين يَرْبدّ. وكانت أصابعه مجعّدة. مضى إلى الخارج. تبعه

ركض في قلب منطقة العروض القديمة، حيث كان يعمل مخمّنو الأوزان، وقارئو الطالع، والغجر الراقصون. أحنى ذقنه وفرد ذراعيه جانباً كطائرة شراعية، وصارَ يقفز كل بضع خطوات، كما يقفز الأطفال، على أمل أن يتحوّل الركض إلى طيران. لعلّ ذلك كان ليبدو سخفاً لو رآه أحد، عامل الصيانة الأشيب هذا، وحده تماماً، يتصوّر نفسه طائرة. لكن الصبي العدّاء موجودٌ داخل كل رجل، مهما بلغ من العمر.

ثم توقّف إيدي عن الركض. سمع شيئاً. صوتاً، معدنيّاً، وكأنه آتٍ من بوق مكبّر للصوت.

«ما رأيكم أيها السيدات والسادة؟ هل رأيتم من قبل خِلقةً بشعةً كهذه؟...».

كان إيدي يقف بجوار كشك تذاكر فارغ أمام مسرح كبير. وثمة لافتة بالأعلى مكتوب عليها:

أعجب مواطني العالم
عروض روبي بير الجانبيّة!
يا إله السماوات! يا لها من بدانة! يا لها من نحافة!
شاهدوا الرجل الوحشي!

العروض الجانبيّة. بيت المسوخ. باحة المُنادين. تذكّر إيدي أنهم أغلقوها قبل خمسين سنة على الأقل، حوالي الوقت الذي راجت فيه أجهزة التلفزيون ولم يعد الناس بحاجة إلى عروض جانبية لدغدغة خيالاتهم.

«انظروا جيداً إلى هذا المتوحّش، المولود بعاهة غريبة لا نظيرَ لها...».

اختلس إيدي النظر إلى المدخل. كان قد رأى بعض الناس الغريبة هنا. رأى جولي جين، التي تزن أكثر من 220 كيلوغراماً وتحتاج إلى رَجُلين يرفعانها كي تصعد الدَّرَج. رأى التوأمتَين الملتصقتَين، اللتين تتشاركان عموداً فقريّاً واحداً وتعزفان على آلات موسيقية. رأى رجالاً يبتلعون السيوف، ونساءً ذوات لُحىً، وأخَوين هنديَّين بجِلدٍ مَطَّ من فرط التمديد والنقع في الزيت، حتى أصبح يتدلّى في طيّات من أطرافهما.

كان إيدي، الطفل، يشعر بالأسى لطاقم العروض الجانبية. كانوا يُجبَرون على الجلوس في كبائن أو على خشبات المسارح، أحياناً وراء قضبان، بينما يمرّ بهم الزبائن، ينظرون شزراً ويشيرون إليهم. كان مُنادٍ يُعلن عمّا أصابهم من شذوذ، وكان صوت المنادي هو ما يسمعه إيدي الآن.

«وحدها انعطافةٌ رهيبة من انعطافات القدر يمكن أن تترك إنساناً في حالة تعيسة كهذه! من أبعد أقاصي العالم، أحضرناه لكم لكي تتفرجوا...».

دخل إيدي القاعة المظلمة. تعالى الصوت أكثر.

«هذه الروح المأساوية تحمَّلَتْ زَلّة من زَلّات الطبيعة...».

كان الصوت يأتي من الجانب الآخر من خشبة مسرحية.

«هنا فقط، في أعجب مواطني العالم، تستطيعون الاقتراب إلى هذه الدرجة...».

فتح إيدي الستار.

«متّعوا عيونكم بهذا المنظر الـ...».

أولاً، شعر أنه بحالة رائعة.

ثانياً، كان وحيداً تماماً.

ثالثاً، كان لا يزال في ملاهي روبي بير.

لكن روبي بير مختلفة الآن. كانت هناك خيامٌ قماشيّة وأراضٍ خالية غَزَتها الحشائش وعدد قليل جدّاً من العوائق التي تمنع بصرك عن رؤية حاجز الأمواج المغطّى بالطحالب داخل المحيط. كانت الألعاب حمراء بلون محطة المطافئ وبيضاء بلون القشدة -لا أزرق مخضرّ ولا بني محمرّ- وكل لعبة لديها كشك التذاكر الخاص بها. كان فنجان الشاي الذي استيقظ فيه جزءاً من لعبة بدائية تسمّى «الطوّافة البانوراميّة». وكانت لافتتها مصنوعة من الخشب الرقائقيّ (الأبلكاش)، مثل غيرها من اللافتات المدلّاة على ارتفاع منخفض، المعلّقة على واجهات المتاجر المصطفّة بطول الحديقة:

إل تيمبو سيجار! الآن، يا له من دخّان!
حساء السمك، 10 سنتات!
اركب الكُرباج - بهجة العصر!

طرفَ إيدي عينَيه بقوّة. كانت هذه روبي بير طفولته، قبل نحو 75 سنة، فقط كان كل شيء جديداً، وكأنه غُسل لتوّه. ها هي لعبة «القطار المقلوب» -التي فُكّكَت قبل عقود- وهاكَ الحمّامات العموميّة ومسابح المياه المالحة التي هُدمت في الخمسينيات. وهناك، بارزة وسط السماء، «الساقية العملاقة» الأصليّة -في طلائها الأبيض العتيق- ووراءها، شوارعُ حَيِّه القديم وأسطح شقق الإيجار المزدحمة المبنيّة من الطوب، وقد عُلّقت من نوافذها حبال الغسيل.

حاول إيدي أن يصرخ، لكنّ صوته كان مخنوقاً. فاهَ بكلمة «إيه!» لكن لا شيء خرج من حلقه.

تحسّس ذراعَيه وساقَيه. بعيداً عن فقدان الصوت، شعر بحالة لا تصدَّق. سارَ في دائرة. قفزَ. لا ألم. على مدار السنوات العشر الأخيرة، كان قد نسى كيف يسير دون أن يعرُج أو يجلس دون أن يجاهد للعثور على وضع مريح لأسفل ظهره. من الخارج، بدا كما كان ذلك الصباح تماماً: شيخاً بديناً بصدرٍ برميليّ في طاقية وسروال قصير وكنزة صيانة بنية اللون. لكنه كان مرناً. مرن جدّاً حتى أنه يستطيع لمس كاحله من الخلف، ورَفْع ساقه إلى بطنه. استكشف جسده مثل طفل وليد، مفتوناً بقدراته الحركيّة الجديدة؛ رجل مطاطيّ يمدّد أوصاله مثلما يفعل الرجل المطاطي.

ثم رَكَضَ.

ها-ها! ركض! لم يركض إيدي فعليّاً منذ أكثر من ستين سنة، منذ الحرب، لكنه كان يركض الآن، بادئاً ببضع خطواتٍ حذرة، ثم مُطلقاً ساقيه للريح، أسرع، أسرع، مثل الصبي العدّاء الذي كانه في صباه. ركض على الممشى الخشبي، مروراً بكشك الطعوم ومعدات الصيد للصيادين (خمسة سنتات) وكشك تأجير ملابس الاستحمام للسبّاحين (ثلاثة سنتات). ركض مروراً بلعبة انزلاق تسمى «القلّابة». ركض بطول منتزه روبي بير، تحت المباني الرائعة مورسكيّة الطراز، ذات القمم المستدقّة والمآذن والقباب. ركض مروراً بـ«الخيول الباريسية الدوّارة»، بأحصنتها المنحوتة من الخشب، ومراياها الزجاجية، والأرغن ماركة «وورلتزر»، كلها لامعة وجديدة. قبلها بساعة واحدة، بحسب ما بدا له، كان يَكشط الصدأ عن أجزائها في ورشته.

تُعيد قبعته فوق رأسه. لاحقاً، ستسير معه بطول اللسان البحري، وربما تأخذه لركوب الفيل، أو مشاهدة الصيادين وهم يلملمون شباكهم المسائية، والسمك يتقلّب مثل عملات فضية نديّة لامعة. ستُمسك يده وتخبره أن الرب فخورٌ به لأنه كان ولداً مطيعاً في عيد ميلاده، وهذا سيجعله يشعر أن العالم قد اعتدلَ من جديد.

الوصول

استيقظ إيدي في فنجان شاي.

كان جزءاً من لعبة ملاهٍ قديمة – فنجان شاي كبير، مصنوع من الخشب المصقول الداكن، فيه مقاعد ذات وسائد وله باب ذو مفاصل حديدية. كانت ذراعا إيدي وساقاه تتدلى من فوق الحافة. وظلّت السماء تُبدّل ألوانها، من البني بلون الأحذية الجلدية إلى القرمزي الداكن.

غريزيّاً، بحث عن عصاه. ظلَّ يضعها بجوار سريره طوال السنوات القليلة الأخيرة، لأنه يشعر في بعض الصباحات أنه لا يقوى على النهوض من دونها. كان ذلك يسبِّب حرجاً لإيدي، الذي اعتاد أن يلكُمَ الرجال في أكتافهم وهو يحيِّيهم.

لكنْ الآن ما مِن عصا، لذا زفر إيدي وحاول أن يرفع نفسه لينهض. لدهشته، لم يؤلمه ظهره. لم ترتجف ساقاه. نترَ نفسه بقوة أكبر فارتفع بسهولة فوق حافة فنجان الشاي، هابطاً بارتباك على الأرض، حيث داهمته ثلاث أفكار سريعة.

اليوم عيد ميلاد إيدي

إنه في الخامسة من عمره. في عَصر يوم أحدٍ في روبي بير. طاولات النزهة نُصبت بطول الممشى الخشبي، الذي يشرف على الشاطئ الأبيض الطويل. ثمة كعكة فانيليا فيها شمعٌ أزرق. ثمة طاسة من عصير البرتقال. عمّال الملاهي يسيرون هنا وهناك، المُنادون، المؤدُّون في العروض الجانبيّة، مروِّضو الحيوانات، بعض الرجال من مصائد الأسماك. والد إيدي، كالعادة، يلعب الورق. إيدي يلعب عند قدميه. شقيقه الأكبر، جو، يمارس تمارين الضغط أمام مجموعة من النساء العجائز، يتصنَّعنَ الاهتمام ويُصفِّقنَ بتهذيب.

إيدي يرتدي هدية عيد ميلاده، قبعة كاوبوي حمراء وجراب مسدّس لُعبة. ينهض ويجري بين مجموعة وأخرى، ساحباً المسدس اللُّعبة وصائحاً: «بانغ! بانغ!».

يناديه ميكي شِيا من على مقعده: «تعالَ هنا يا ولد».

يصيح إيدي: «بانغ! بانغ!».

ميكي شيا يعمل مع والد إيدي في تصليح الألعاب. رجل سمين يرتدي حمَّالات ودائماً يغني أغاني أيرلنديّة. إيدي يظن أن رائحته غريبة، مثل دواء السعال.

يقول: «تعالَ هنا. دعني أعطيك رَجَّات عيد الميلاد. مثلما نفعل في أيرلندا».

فجأة، تَدخُل يدا ميكي الكبيرتان تحت إبطي إيدي ويجد نفسه مرفوعاً في الهواء، ثم مقلوباً ومعلقاً من قدميه. تسقط قبعة إيدي.

تصرخ والدة إيدي: «انتبه يا ميكي!». يرفع والد إيدي رأسه، يصطنع ابتسامة، ثم يعود إلى دور الورق.

يقول ميكي: «هوو، هوو، إنه في أيدٍ أمينة. الآن. رَجَّة لكل سنة».

يخفض ميكي إيدي برقّة، حتى يحكُّ رأسُه في الأرض.

«واحد!».

يرفع ميكي إيدي ثانية. ينضمُّ الآخرون وهم يضحكون. ثم يصرخون، «اثنان!... ثلاثة!».

مقلوباً رأساً على عقب، لا يميّز إيدي بين الوجوه. رأسه يزداد ثقلاً.

يصيحون: «أربعة!... خمسة!».

يُقلَب إيدي على جنبه، ثم يُوضع على قدميه. يصفق الجميع. يمدّ إيدي يده إلى قبعته، ثم يتعثّر ويسقط. ينهض، يتطوح باتجاه ميكي شيا، ويلكمه في ذراعه.

يقول ميكي: «هوو-هوو! لماذا أيها الرجل الصغير؟».

يضحك الجميع. يستدير إيدي ويجري بعيداً، ثلاث خطوات، قبل أن تأخذه أمه بين ذراعيها.

«هل أنت بخير يا صغيري العزيز صاحب عيد الميلاد؟». لا تبعد عن وجهه إلّا بضع بوصات. يرى طلاء شفتيها الأحمر الداكن وخديها الناعمَين المكتنزَين وموجة شعرها الكستنائيّ.

يقول لها: «كنت مقلوباً».

تقول: «لقد رأيتُ».

بالأصفر الفاتح. كان إيدي يحلّق، وذراعاه لا تزالان ممدودتَين.

أين...؟

كانت العربة العالية تسقط. تذكَّرَ ذلك. الفتاة الصغيرة -إيمي؟ آني؟- كانت تبكي. تذكّر ذلك. تذكّر اندفاعه. تذكّر ارتطامه بالمنصة. شعر بيديها الصغيرتَين في يديه.

ثم ماذا؟

هل أنقذتُها؟

لم يستطع إيدي تصوُّر الحادثة إلّا من بعيد، وكأنها وقعت منذ سنوات. والأغرب أنه لم يستطع أن يشعر بأي عواطف ارتبطَت بها. كان يشعر فقط بالهدوء، مثل طفلٍ محمولٍ بين ذراعَي أمه.

أين...؟

تبدَّلت السماء من حوله ثانية، إلى أصفر بلون الـ«جريب فروت»، ثم إلى أخضر بلون الغابات، ثم إلى وردي ربطَهُ إيدي في الحال بحلوى غَزْل البنات، مِن بين كل الأشياء.

هل أنقذتُها؟

هل عاشت؟

أين...

... هَمّي؟

أين ألَمي؟

ذاك ما اختفى. كلّ جُرحٍ عانى منه، كلّ صداع ألَمَّ به في حياته - كل ذلك تلاشى مثل زَفرة تَخرج من جسد. لا يشعر باللوعة. لا يشعر بالحزن. وعيُه غائم، واهن، لا يستطيع إلّا أن يظلَّ هادئاً. الآن، تغيّرت الألوان مِن تحته مجدداً. دوامة من شيء ما. ماء. محيط. كان يحلّق فوق بحر أصفر شاسع. الآن تحوّل إلى لون

الشمّام. الآن أصبح زعفرانيّاً. الآن بدأ يسقط، مندفعاً باتجاه السطح. سقوطُه أسرع من أي شيء تخيَّله في حياته، مع ذلك لم يشعر ولو بنسمة هواء على وجهه، ولم يحسّ بالخوف. رأى رمال شاطئ ذهبيّ.

ثم أصبح تحت الماء.

ثم صَمَت كل شيء.

أين همّي؟

أين ألمي؟

اليوم عيد ميلاد إيدي

العام 1920. مستشفى مزدحمة في أحد أفقر أحياء المدينة. والد إيدي يدخّن سيجارة في صالة الانتظار، حيث يدخّن الآباء الآخرون السجائر أيضاً. تدخل الممرضة ومعها لوح أوراق. تنادي اسماً. تخطئ في نطقه. ينفخ بقية الرجال الدخان.

يرفع يده.

تقول الممرضة: «مبروك».

يتبعها في الردهة إلى حضانة المواليد الجدد. حذاؤه يُطقطق على الأرض.

تقول: «انتظر هنا».

من وراء الزجاج، يراها تراجع أرقام الأسرَّة الخشبية. تنتقل من واحد، ليس ابنه، إلى التالي، ليس ابنه، إلى التالي، ليس ابنه، إلى التالي، ليس ابنه.

تتوقف. ها هو. تحت البطانية. رأسٌ صغيرٌ مغطىً بطاقية زرقاء. تراجع لوح أوراقها مجدداً، ثم تشير إليه.

يتنفّس الأب الصعداء، يومئ برأسه. للحظة، يبدو وجهه وكأنه يتداعى، مثل جسر ينهار في نهر كبير. ثم يبتسم.

ابنه.

الرحلة

لم يَرَ إيدي شيئاً من لحظته الأخيرة في الحياة الدنيا، لا شيء من الملاهي ولا من الحشد ولا من العربة المتهشّمة المصنوعة من الألياف الزجاجية.

في قصص الحياة بعد الموت، عادة ما تُحلِّق الروح فوق لحظة الوداع، تُحوِّم فوق سيارات الشرطة في حوادث الطرق السريعة، أو تتشبّث مثل عنكبوت بأسقف غرف المستشفيات. هؤلاء أناسٌ يُمنحون فرصةً ثانيةً، يستأنفون، على نحوٍ ما، ولسببٍ ما، مكانهم في العالم.

إيدي، كما تبيَّن، لم يُمنح فرصة ثانية.

أين...؟

أين...؟

أين...؟

كانت السماء ضبابيّة، بلون اليقطين، ثم باللون الفيروزي، ثم

«لا، لا، لا، لا تفعلها!».

استدار إيدي إلى الحشد. «**تراجعوا!**».

لا بُدّ أن شيئاً في صوت إيدي جذب انتباه الناس، فكفّوا عن الهتاف وبدأوا يتفرّقون. خَلَت مساحة حول قاعدة «هاوية فريدي».

ورأى إيدي آخر وجوهٍ في حياته.

كانت ممدَّدة على قاعدة اللعبة المعدنية، وكأن شخصاً قد دفعها فسقطت عليها، أنفها يَرشح، والدموع تملأ عينَيها. إنها الفتاة الصغيرة التي صنع لها إيدي حيواناً من أعواد تنظيف الغليون. إيمي؟ آني؟

«ما... ماما... ماما»، كانت تلهث، على نحو إيقاعي تقريباً، جسدُها متجمّد في ذلك الشلل الذي يصيب الأطفال عندما يصرخون.

«ما... ماما... ما... ماما».

اندفعت عينا إيدي بينها وبين العربتين. هل يسعفه الوقت؟ هي والعربتان-

ووومب. فات الأوان. كانت العربتان تسقطان -**يا إلهي، لقد حرَّر المكابح!**- ورأى إيدي كل شيء ينزلق في حركة مائية. ترك عصاه ودفع قدمَه المصابة فشعر بدفقة من الألم كادت تُسقطه أرضاً. خطوة كبيرة. خطوة أخرى. داخل بئر «هاوية فريدي»، انقصف آخر سلك من الأسلاك واندفع ممزقاً الخرطوم الهيدروليكي. العربة رقم 2 أصبحت الآن في مسقط قاتل، لا شيء يمنعها، جلمودٌ يهوي من فوق جَرف.

في تلك اللحظات الأخيرة، هُيّئ لإيدي أنه يسمع العالم بأكمله: صراخٌ بعيد، أمواجٌ، موسيقى، عصفةُ ريح، صوتٌ أجشّ،

عالٍ، قبيح، تبيَّن له أنه صوتُه يُدوي في صدره. رفعت الفتاة الصغيرة ذراعيها. اندفع إيدي. التوّت ساقه المصابة. طار إلى الأمام نصف طَيْرة، سَقَط نصف سَقْطة، وحطَّ على المنصة المعدنية، التي مزَّقت قميصه وشقَّت جلده، تماماً أسفل الشارة المكتوب عليها «إيدي» و«صيانة». شعر بيدين في يديه، يدين صغيرتين.

ارتطام رهيب.

ومضة بَرقٍ أغشت الأبصار.

ثم، لا شيء.

سيكون عليك أن تمسك بويلي وهو ينحني عليها. طيّب؟ ثُم... ثُم تخرجانهم أنتما الاثنان - أنتما الاثنان، لا أحدكما فقط، هل تفهم؟! واحدٌ يمسك الآخر! هل تفهم؟!... **هل تفهم؟**».

أومأ دومينغيز برأسه في سرعة.

«ثم ارسلا تلك العربة اللعينة إلى أسفل لنرى ما الذي حدث».

كان رأس إيدي يدقّ. فمع أن هذه الحديقة لم تشهد أي حادثة كبيرة، كان يعرف قصصَ مهنته المرعبة. ذات مرة، في ملاهي برايتون، انفكّ مسمار إحدى العربات، وسقط شخصان ولقيا حتفهما. وفي مرة أخرى، في ملاهي وَندرلاند، حاول رجلٌ السير على قضيب القطار الأفعواني؛ فسقط من إحدى الفتحات وعلِق من تحت إبطيه. كان محشوراً، يصرخ، بينما العربات تندفع صوبه بسرعة كبيرة... طيّب، كانت تلك أسوأ الحوادث.

طرد إيدي تلك الصورة من رأسه. كان كثيرون قد التفّوا حوله، أياديهم فوق أفواههم، يراقبون دومينغيز وهو يتسلّق السلَّم. حاول إيدي أن يتذكر دواخل «هاوية فريدي». **محرِّك. اسطوانات. أنظمة هيدروليكية. سدادات. أسلاك.** كيف يمكن لعربة أن تُفلت؟ تابع اللعبة ببصره، بداية من الركّاب الأربعة المذعورين في القمة، مروراً بعمود الهاوية المرتفع، وصولاً إلى القاعدة. **محرِّك. اسطوانات. أنظمة هيدروليكية. سدادات. أسلاك...**

وصل دومينغيز إلى المنصة العلوية. فعلَ كما أمره إيدي، فأمسك بويلي بينما مال ويلي صوب مؤخّرة العربة ليحرِّر كابح الأمان. اندفعت إحدى الراكبتَين باتجاه ويلي وكادت تُسقطه عن المنصة. وشهق الحشد.

«انتظر...»، قالها إيدي لنفسه.

حاول ويلي مجدّداً. هذه المرة نجح في تحرير الكابح.

«سلك...»، غمغم إيدي.

ارتفع حاجز الأمان وصاح الحشد «آآآآآه». سُحب الركّاب بسرعة إلى المنصة.

«السلك **يتفسَّخ**...».

وكان إيدي محقّاً. داخل قاعدة «هاوية فريدي»، بعيداً عن الأنظار، ظلّ السلك الذي يرفع العربة رقم 2، على مدار الأشهر القليلة الماضية، يحتكُّ ببكرة مسدودة. ولأنها مسدودة، راحت تمزّق تدريجيّاً الأسلاك الحديدية -مثلما يُقشّر المرء عودَ ذُرة- حتى انقطعَت تقريباً. لم يلاحظ أحد. وكيف يلاحظون؟ ما كان لأحد أن يرى ذلك السبب غير الوارد للمشكلة ما لم يزحف داخل آليات اللعبة.

كانت البكرة مسدودة بغرضٍ صغيرٍ لا بُدّ أنه سقط عبر الفتحة في لحظة شديدة الدقّة.

مفتاح سيارة.

«**لا تُحرّر العربة!**»، صرخ إيدي. راح يلوح بذراعه: «**إيه! إيييه! إنه السلك! لا تحرّر العربة! سينقطع!**».

غرق صوته وسط صياح الحشد. كانوا يهتفون عالياً بينما يُخلي ويلي ودومينغيز آخر الركّاب. خرج الأربعة سالمون. راحوا يتعانقون فوق المنصة.

صرخ إيدي: «**دُوم! ويلي!**». ارتطم أحدهم بخصره، مُسقطاً جهاز اللاسلكي على الأرض. انحنى إيدي ليلتقطه. اتجه ويلي إلى لوحة التحكم. وضع إصبعه على الزر الأخضر. رفع إيدي رأسه.

كل من يهتم لأمره. البعض مات شاباً، والبعض أُتيحت له فرصة التقدّم في العمر قبل أن يأخذه مرض ما أو حادثة ما. في جنازاتهم، كان إيدي يصغي للمشيّعين وهم يتذكرون محادثاتهم الأخيرة. «**وكأنه كان يعرف أنه سيموت...**»، هكذا كان يُقال.

إيدي لم يعتقد أبداً في ذلك. بحسب ما يعرف، عندما يأتي الموت، فهو يأتي، هذا هو كل شيء. قد تقول شيئاً ذكيّاً وأنت تخرج، لكن قد تقول أيضاً شيئاً غبيّاً.

وللعِلم، ستكون آخر كلمات إيدي هي: «تراجعوا!».

ها هي أصوات آخر لحظات إيدي في الحياة الدنيا. أمواجٌ تتلاطم. قرقعة موسيقى الروك من بعيد. طنين محرّك طائرة صغيرة مزدوجة الأجنحة، تجرُّ وراءها إعلاناً، هذا هو كل شيء.

«**يا ربي! انظروا!**».

شعر إيدي بعينيه تندفعان تحت أجفانه. على مرّ السنين، أصبح يعرف كل صوت في روبي بير وكان بإمكانه أن ينام وسط ضجيجها جميعاً وكأنها تهويدة.

«**يا ربي! انظروا!**».

هبَّ إيدي واقفاً. كانت امرأةٌ لها ذراعان سمينتان مترهلتان تُمسك حقيبة تسوُّق وتشير وتصرخ. تجمَّع حولها حشدٌ صغير، عيونهم صوب السماء.

رأى إيدي الموقف على الفور. فوق «هاوية فريدي»، لعبة «الهبوط العمودي» الجديدة، كانت إحدى العربات تميل بزاوية، وكأنها تحاول إفراغ شحنتها. وكان أربعة ركّاب، رجلان وامرأتان،

لا يمسكهم إلّا حاجز الأمان، يحاولون مسعورين التشبّث بأي شيء.

صرخت المرأة السمينة: «**يا ربي! هؤلاء الناس! سيسقطون!**».

زعقَ صوت من اللاسلكي المعلَّق بحزام إيدي. «**إيدي! إيدي!**».

ضغط الزر. «أرى ما يحدث! استدعِ الأمن!».

ركض الناس من الشاطئ، وهم يشيرون وكأنهم تمرّنوا على هذه المناورة من قبل. **انظروا! هناك في السماء! عربة جُنّ جُنونها!** قبض إيدي على عصاه وهرول يَعرُج إلى سور الأمان المحيط بقاعدة المنصّة، حلقة مفاتيحه تُصلصل وهي تضرب في وركه. وقلبه يخفق.

صُمّمت «هاوية فريدي» لكي تُسقط عربتَين في سرعة تنقلبُ لها المعدة، لا تتوقفان إلّا في اللحظة الأخيرة بفعل دفقة من الهواء الهيدروليكي. فكيف انحلَّت إحدى العربتَين على هذا النحو؟ لقد مالت قبل أقدام قليلة من المنصة العلوية، وكأنها بدأت هبوطها ثم غيَّرت رأيها.

وصل إيدي إلى البوابة وكان عليه أن يحبس أنفاسه. جاء دومينغيز يركض حتى كاد يرتطم به.

«اسمعني»، قالها إيدي، وهو يقبض على كتفَي دومينغيز. كانت قبضته قوية جدّاً، حتى أن وجه دومينغيز اكتسى بالألم. «اسمعني! مَن فَوق هناك؟».

«ويلي».

«طيّب. لا بُدَّ أنه خَبَط فرملة الطوارئ. لهذا عَلِقَت العربة. اصعد السلَّم وقُل لويلي أن يحرّر كابح الأمان يدوياً حتى يتمكن هؤلاء الناس من الخروج. طيّب؟ الكابح في مؤخّرة العربة، لذا

«-أحبك-».

ليييييييي.

«-طوال الوقت، وكنت تعرف-».

شششويششش

«-أظنك كنت تعرف...».

شعر إيدي ببديها على كتفيه. عَصرَ عينيه بقوة، ليقرّب ذكراها أكثر.

اثنتا عشرة دقيقة على انتهاء حياته.

«من فضلك».

وقفت أمامه فتاة صغيرة، في الثامنة من عمرها ربما، تحجب عنه أشعة الشمس. كانت لها خصلات متموجة شقراء وترتدي صندلاً وشورت من الجينز وتيشيرت أخضر ليمونيّاً. تيشيرت عليه رسمٌ لبطّة. إيمي، ظنّ اسمها كذلك. إيمي أو آني. رآها إيدي عدة مرات هذا الصيف، ولو أنه لم يرَ لها أمّاً ولا أباً.

كرَّرَتْ: «من فضلاااااك. إيدي صيانة؟».

تنهّد إيدي، وقال: «إيدي فقط».

«إيدي؟».

«إمم هممم؟».

«ممكن تصنع لي...».

«هيا يا صغيرة. ليس أمامي اليوم بطوله».

«ممكن تصنع لي حيواناً؟ ممكن؟».

رفع إيدي رأسه، وكأن عليه أن يفكر في الأمر. ثم مدّ يده في

جيب قميصه وأخرى ثلاثة من أعواد تنظيف الغليون، يحملها معه لهذا الغرض تحديداً.

بدأ إيدي يلفّ الأعواد.

«أين والداكِ؟».

«يركبان لعبة».

«مِن دونك؟».

هزت الفتاة كتفيها. «ماما مع صديقها».

رفع إيدي رأسه. أوه.

ثنى الأعواد في عدة حلقات صغيرة، ثم لوى الحلقات في حلقة واحدة. يداه صارتا ترتعشان الآن، لذا استغرق وقتاً أطول من المعتاد، لكنّ أعواد تنظيف الغليون سرعان ما شكّلَت رأساً، وأذنين، وجسداً، وذيلاً.

قالت الفتاة الصغيرة: «أرنب؟».

غمز إيدي بعينيه.

«شكراااااان جِدًّاااااان».

استدارت ومضت في طريقها، ضاعت في ذلك المكان حيث لا يَعرف الأطفال أين تقودهم أقدامهم. مسح إيدي جبينه ثانية، ثم أغمض عينيه، وارتمى في كرسيه الشاطئيّ، وحاول أن يسترجع الأغنية القديمة في رأسه.

نَعَق نورسٌ وهو يطير فوق رأسه.

كيف يختار الناس كلماتهم الأخيرة؟ هل يدركون أهميتها؟ هل تكون حكيمة دائماً؟

بحلول عيد ميلاده الثالث والثمانين، كان إيدي قد فقد تقريباً

الداكن على عينَيها، فيشعر بدفقة الحب في شرايينه تماماً مثلما شعر وقتها.

تلك الليلة عاد إلى البيت وأيقظ شقيقه الأكبر. قال له إنه قابل الفتاة التي سوف يتزوجها.

زمجر شقيقه قائلاً: «اذهب لتنام يا إيدي».

ووووش. تكسَّرَت موجة على الشاطئ. سعل إيدي فخرج شيء لم يرغب في رؤيته. بصقه بعيداً.

ووووش. كان يفكر كثيراً في مارغريت من قبل. الآن لم يعد يفكر فيها كثيراً. كانت أشبه بجُرح تحت ضمادة قديمة، وقد اعتاد أكثر فأكثر على الضمادة.

ووووش.

ما هو القوباء؟

ووووش.

ستة عشر دقيقة على انتهاء حياته.

ما من قِصّة منعزلة. أحياناً تلتقي القصص من أطرافها وأحياناً تُغطّي بعضها بعضاً بالكامل، مثل الحصى في قاع نهر.

نهاية قصة إيدي تلامَسَت مع قصة أخرى تبدو بريئة، وقعَت قبلها بشهور - في ليلة ملبَّدة بالغيوم عندما وصل شابٌّ إلى روبي بير مع ثلاثة من أصدقائه.

كان الشاب، واسمه نيكي، قد بدأ القيادة لتوّه ولم يتعوَّد بَعدُ على حمل سلسلة مفاتيح. لذا أخرج مفتاح السيارة الوحيد ووضعه في جيب سترته، ثم ربط السترة حول خصره.

على مدار الساعات القليلة التالية، ركب هو وأصدقاؤه كل

الألعاب السريعة: «الصقر الطيَّار»، «الطشَّاشة»، «هاوية فريدي»، «قطار الأشباح».

صاح أحدهم: «ارفعوا أيديكم».

فرفعوا أيديهم جميعاً في الهواء.

لاحقاً، عندما حلَّ الظلام، عادوا إلى ساحة انتظار السيارات، متعَبين وضاحكين، يشربون البيرة من زجاجات ملفوفة بأكياس ورقيّة بنيّة اللون. وضع نيكي يده في جيب سترته. بحث بأصابعه. ثم أطلق سباباً.

لقد اختفى المفتاح.

أربع عشرة دقيقة حتى موته. مسح إيدي جبهته بمنديل. في المحيط، راحت أشعة الشمس تتراقص على سطح الماء مثل قِطع من الماس، وراح إيدي يتابع حركتها الرشيقة. لم يقف منتصباً على قدميه منذ الحرب.

لكن في ذلك الزمن، عندما كان مع مارغريت بالقرب من خشبة المسرح المقامة على شكل صدفة بحرية، «مسرح غبار النجوم» - كان لا يزال رشيقاً. أغمضَ عينَيه وسمح لنفسه باسترجاع الأغنية التي جمعتهما معاً، تلك التي غنَّتها جودي غارلند في ذلك الفيلم. اختلطَت في رأسه بنشاز الأمواج المتلاطمة والأطفال الذين يصرخون في ألعابهم.

«جعلتَني أحبّك-».

ووووش.

«-أريد، لم أكن أريد-».

سبلاااااااااششششش.

إيدي. كانت الملاهي خالية. كان الشاطئ خالياً. أكان الكوكب كله خالياً؟

«قل لي»، سأله الرجل الأزرق، وهو يشير إلى القضيب الخشبي البعيد ذي الحدبتَيْن الذي يتحرّك عليه القطار الأفعوانيّ. «الكُرباج». بُني هذا القطار في العشرينيات، قبل اختراع العجلات المقاومة للاحتكاك، ما يعني أن عرباته لم تكن قادرة على الانحراف بسرعة شديدة - إلا إن أرّدتها أن تندفع خارجة عن القضبان. «الكرباج»، أما زال «أسرع ركوبة على سطح الأرض»؟».

نظر إيدي إلى القطار القديم المقعقِع، الذي هُدم قبل سنوات. هزّ رأسه نافياً.

قال الرجل الأزرق: «آه. هذا ما تخيلتُه. الأشياء لا تتغير هنا. وليست لدينا إمكانية النظر من فوق السحاب كما يُشاع، للأسف».

هنا؟ فكّر إيدي.

ابتسم الرجل الأزرق وكأنه سمع سؤاله. لمس كتف إيدي فشعرَ إيدي بدفقة دفء لا تشبه أي شيء شعر به من قبل. راحت الأفكار تنسكب وكأنها جملٌ منطوقة.

كيف مِتُّ؟

قال الرجل الأزرق: «حادثة».

منذ متى مِتُّ؟

«دقيقة. ساعة. ألف عام».

أين أنا؟

زمّ الرجل الأزرق شفتيه، ثم كرّر السؤال متأملاً. «أين أنت؟». استدار ورفع ذراعيه. في الحال، دارت محرّكات ألعاب روبي بير القديمة وانبعثت فيها الحياة: «الساقية العملاقة» دارت، «سيارات

المراوغة» راحت تصطدم بعضها ببعض، «الكُرباج» طَقطقَ صاعداً التلة، و«الخيول الباريسية الدوّارة» تأرجحت صعوداً ونزولاً على أعمدتها على أنغام الموسيقى المرحة لأرغن «وورلتزر». كان المحيط أمامهما. وكانت السماء بلون الليمون.

«تعتقد أين؟»، سأله الرجل الأزرق. «في الجنة».

لا! هزَّ إيدي رأسه بعنف. **لا!** بدا الرجل الأزرق متسلّياً.

قال: «لا؟ لا يمكن أن تكون الجنة؟ لماذا؟ لأن هذا هو المكان الذي نشأتَ فيه؟».

تفوّه إيدي بكلمة **نعم**.

أومأ الرجل الأزرق برأسه: «آه. طيّب. الناس كثيراً ما يستخفّون بالأماكن التي وُلدوا فيها. لكنّ الجنة يمكن أن توجد في أبعد الأماكن احتمالاً. والجنة نفسها لها درجاتٌ كثيرة. هذه، بالنسبة إليّ، الدرجة الثانية. وبالنسبة إليك، الدرجة الأولى».

قاد إيدي في أرجاء الحديقة، مروراً بمحلات السيجار وأكشاك السجق و«ملاهي القمار» حيث كان المغفّلون يخسرون عملاتهم فئة الخمسة والعشرة سنتات.

الجنة؟ فكّر إيدي. هذا سخف. كان قد قضى جُلّ حياته البالغة يحاول **الهروب** من روبي بير. إنها حديقة ملاهٍ، هذا كل شيء، مكان تَصرخ فيه، وتُبلّل ملابسك، وتُبادل دولاراتك بدُمى أطفال كبيرة الرؤوس. فكرة أن تكون هذه الملاهي مثوىً مباركاً كانت تتجاوز خياله.

حاول الكلام ثانية، وهذه المرة سمع نخرة صغيرة من صدره. استدار الرجل الأزرق.

«صوتك سيرجع إليك. كلنا نمرُّ بالأمر نفسه. لا تستطيع الكلام فور وصولك».

ابتسم. «هذا يساعدك على الإصغاء».

«في الجنة تقابل خمسة أشخاص»، قالها الرجل الأزرق فجأة. «كلٌّ منا كان في حياتك لسبب ما. ربما لم تعرف السبب في حينها، وهذه فائدة الجنة. أن تفهم حياتك على الأرض».

بدا إيدي مرتبكاً.

«يظن الناس أن الجنة ما هي إلّا حدائق فردوس، مكان يسبحون فيه فوق السحاب ويستجمّون وسط الأنهار والجبال. لكن المناظر التي لا تقدّم عزاءً للإنسان لا معنى لها.

«هذه أكبر هدية يُنعم عليك بها الرب: أن تفهم ما حدث في حياتك. أن تجدَ تفسيراً. إنه السلام الذي كنت تبحث عنه».

سعل إيدي، محاولاً إخراج صوته. لقد تعب من الإصغاء.

«أنا شخصُك الأول يا إدوارد. عندما مِتُّ، استنارت حياتي بخمسة أشخاص آخرين، ثم جئتُ إلى هنا لكي أنتظرك، لكي أقف في طابورك، لكي أخبرك بقصتي، التي تصبح جزءاً من قصتك. ستقابل آخرين، أيضاً. بعضهم تعرفه، وربما لا تعرف البعض الآخر. لكنهم جميعاً تقاطعوا مع دربك قبل موتهم. وغيَّروه إلى غير رَجعة».

دفع إيدي صوتاً من صدره، بأقصى ما يستطيع. ونجح أخيراً في أن ينطق بصوت كنقيق الضفادع: «ما الذي...».

بدا صوته وكأنه يفقس بَيضة ليخرجَ منها، كفرخٍ صغير.

«ما الذي... قَتَل...».

انتظر الرجل الأزرق بصبر.

«ما الذي... قَتَلك؟».

نظر الرجل الأزرق، وقد بدا أنه فوجئ قليلاً. ابتسم لإيدي. قال: «أنت قتلتني».

اليوم عيد ميلاد إيدي

إنه في السابعة من عمره وهديَّته كرة بيسبول جديدة. يعصرها في يد، ثم في الأخرى. يشعر بدفقة قوّة تجري في ذراعَيه. يتخيّل أنه أحد أبطاله الذي يجمع صورهم في «ألبوم الأبطال»، ربما والتر جونسن، الرامي العظيم.

يقول شقيقه جو: «هيا، ارمِها لي».

يركضان بطول منطقة العروض، من أمام كابينة الألعاب. حيث، إذا نجحتَ في إسقاط ثلاث زجاجات خضراء، تكسب ثمرة جوز هند وشفَّاطة.

يقول جو: «هيا يا إيدي. دعني ألعب معك».

يتوقف إيدي، ويتخيّل نفسه في ملعب. يرمي الكرة. يسحب شقيقه مرفقيه ويُحني رأسه.

يصيح جو: «قوية جدّاً».

يصرخ إيدي: «كرتي! اللعنة عليك يا جو».

يشاهد إيدي الكرة وهي تندفع على الممشى الخشبي وتصطدم بعمودٍ في وسط فُسحة صغيرة وراء خيام العروض الجانبيّة. يركض وراءها. يتبعه جو. يرتميان على الأرض.

يقول إيدي: «هل تراها؟».

«لا».

يقاطعهما صوتٌ خَبْط. تنفتح إحدى الخيام. يرفع إيدي وجو رأسيهما. تقع أعينهما على امرأة سمينة على نحو صارخ ورجل عاري الصدر يغطّي جسده كُلّه شعرٌ مائل للحُمرة. مسخان من عرض المسوخ.

يتجمّد الطفلان.

يقول الرجل المُشعِر بتكشيرة عريضة: «ماذا تفعلان هنا يا جهابذة؟ تبحثان عن المتاعب؟».

ترتعش شفة جو. يبدأ في البكاء. يهبّ واقفاً على قدميه ثم يركض هارباً، ذراعاه يضربان الهواء بقوة، وكأنهما مضختان. ينهض إيدي، هو الآخر، ثم يرى كرته عند طاولة نَشر الخشب. ينظر إلى الرجل عاري الصدر ويتحرّك ببطء ناحيتها.

يُدمدم: «هذه لي». يلتقط الكرة من على الأرض ثم يركض وراء شقيقه.

«اسمع يا سيّد»، يقولها إيدي بصوت أجشّ، «أنا لم أقتلك. طيّب؟ أنا لا **أعرفك** أصلاً».

جلس الرجل الأزرق على مقعد مستطيل. ابتسم كَمَنْ يحاول طمأنة ضيفه. ظلَّ إيدي واقفاً، في وضعيّة دفاعيّة.

قال الرجل الأزرق: «دعني أبدأ باسمي الحقيقي. لقد عُمّدتُ باسم جوزيف كورفيلسيك، ابناً لخيّاط في قرية بولندية صغيرة. جئنا إلى أميركا عام 1894. كنت لا أزال صبيّاً. رفعتني أمي فوق درابزين السفينة فأصبحَت تلك أولى ذكريات طفولتي، أمي وهي تؤرجحني في نسيم العالم الجديد.

«مثل معظم المهاجرين، لم نكن نملك شيئاً. كنا ننام على حشيّة في مطبخ عمي. أُجبر أبي على قبول وظيفة في مَشغَل خياطة، يخيط الأزرار إلى المعاطف. عندما بلغتُ العاشرة، أخرجَني من المدرسة، والتحقتُ به».

راقب إيدي وجه الرجل الأزرق المُنخَرِب، شفتيه الرفيعتين، صدرَه المتدلي. وفكّر: **لماذا يخبرني بهذا؟**

«كنتُ طفلاً عصبيّاً بطبيعتي، وكانت الضوضاء في المشغل تُزيد الأمور سوءاً. كنت أصغر من أن أكون هناك، بين هؤلاء الرجال، الذين لا يكفّون عن التذمُّر وإطلاق الشتائم.

«كلّما اقتربَ مني مُلاحِظ العمّال، كان أبي يقول: «نكِّس رأسك. لا تجعله يلاحظك». مع ذلك، فقد حدث مرة أن تعثرتُ وأسقطتُ كيساً من الأزرار، فانسكبَت على الأرض. صرخ مُلاحظ العمّال أنني عديم الفائدة، طفلٌ عديم الفائدة، ويجب أن أرحل. ما زلتُ أرى تلك اللحظة، أبي يتوسّل إليه مثل شحّاذ، والملاحِظ يهزأ منه، يمسح أنفه بظهر يده. شعرتُ بمعدتي تتلوّى من الألم. ثم شعرتُ ببللٍ على ساقي. نظرتُ إلى أسفل. أشار الملاحِظ إلى سروالي الملطّخ وضحك، وضحك بقية العاملين أيضاً.

«بعدها، رفض أبي أن يتكلّم معي. شعر أنني جلبت له العار، وأظنني فعلتُ ذلك، في عالمه. لكن الآباء أحياناً ما يحطّمون أطفالهم، وقد شعرت أنني مُحطَّم، على نحو ما، بعد ذلك. كنت طفلاً عصبيّاً، وعندما شببتُ عن الطوق، أصبحتُ شابّاً عصبيّاً. الأسوأ من كل ذلك أنني ظللت أبلِّل فراشي ليلاً. في الصباحات، كنت أتسلل بالملاءات الملطّخة إلى حوض الغسيل، وأنقعها. ذات صباح، رفعتُ رأسي فرأيت أبي. رأى الملاءات المتّسخة، فرماني بنظرة لاهبة لن أنساها أبداً، وكأنه تمنّى لو يَقطع حبلَ الحياة الواصل بيننا».

سكت الرجل الأزرق. كان جِلده، الذي بدا منقوعاً في سائل أزرق، مطويّاً في طبقات شحميّة صغيرة حول حزامه. لم يستطع إيدي أن يمنع نفسه من التحديق.

قال: «لم أكن مسخاً منذ ولادتي يا إدوارد. لكن في ذلك الوقت، كان الطبّ بدائيّاً للغاية. ذهبتُ إلى كيميائيّ، أبحث عن شيء لأعصابي. أعطاني زجاجة من نترات الفضة وقال لي أن أخلطها بالماء وأتناولها كل ليلة. نترات الفضة. بعد ذلك أصبحَت

تُعتبر من السموم. لكنها كانت كل ما لديّ، وعندما لم تأتِ بنتيجة، لم يسعني إلّا افتراض أنني لا أتجرَّع ما يكفي. لذا أصبحت أتناول أكثر. أبتلع جرعتَين وأحياناً ثلاثاً، بلا ماء.

«سرعان ما أصبح الناس ينظرون إليَّ نظرة غريبة. كان جلدي يتحوّل إلى لون الرماد.

«كنت خجلاً ومشوَّشاً. تجرّعتُ المزيد والمزيد من نترات الفضة، حتى تحول جلدي من الرمادي إلى الأزرق، عَرَضٌ جانبيٌّ من أعراض هذا السم».

سكت الرجل الأزرق. انخفض صوته. «سرَّحني المَصنع. قال الملاحظ إنني أخيف بقية العاملين. من دون عمل، كيف آكل؟ أين أعيش؟

«وجدتُ حانة، مكاناً مظلماً حيث أستطيع أن أختبئ تحت قبعة ومعطف. ذات ليلة، كانت مجموعة من رجال الكرنفالات تجلس في مؤخّرة الحانة. يدخّنون السيجار. يضحكون. ظلَّ أحدهم، رجل صغير القامة بساق خشبية، ينظر إليَّ. وأخيراً، اقترب مني.

«في نهاية الليلة، كنت قد وافقت على الانضمام إليهم. وبدأتْ حياتي كسلعة».

لاحظ إيدي نظرة مستكينة على وجه الرجل الأزرق. كثيراً ما تساءل من أين يأتي فريق العروض الجانبية. افترضَ أن ثمة قصة حزينة وراء كل واحد منهم.

«منحني رجال الكرنفالات أسمائي الجديدة يا إدوارد. أحياناً كنت «الرجل الأزرق من القطب الشمالي»، أو «الرجل الأزرق من الجزائر»، أو «الرجل الأزرق من نيوزيلاند». لم يسبق لي قَط أن ذهبت إلى أي من تلك الأماكن بالطبع، لكنه كان أمراً سارّاً أن

يعتبرني الناس أعجوبة، حتى لو على لافتة مكتوبة. كان «العرض» بسيطاً. أجلس على الخشبة، عاري الصدر، بينما يمرّ بي الناس ويخبرهم المنادي عن مدى بؤسي. مقابل هذا، كنت قادراً على وضع بضع عملات فضيّة في جيبي. ذات مرة وصفني المدير بأنني «أفضل مسخ» في إصطبله، ورغم ما في ذلك من بؤس، فقد شعرتُ بالفخر. عندما تكون منبوذاً، حتى الحصاة التي تُلقى عليك تُصبح محلّ إعزاز.

«ذات شتاء، جئتُ إلى تلك الملاهي على الرصيف البحري. روبي بير. كانوا يبدؤون عرضاً جانبياً يُسمّى «أعجب المواطنين». أحببتُ فكرة أن أكون في مكان واحد، أن أهرب من حياة الكرنفالات وعرباتها التي تتزَحْزَح بينما تجرّها الخيل من مكان إلى آخر.

«أصبحَت هذه داري. عشتُ في حجرة فوق دكّان لبيع السجق. كنت ألعب الورق في الليل مع زملائي في العروض الجانبية، مع السمكريّة، وأحياناً حتى مع والدك. في الصباحات المبكّرة، إذا ارتديتُ قمصاناً طويلة ولففتُ رأسي بفوطة، كان بإمكاني أن أسير بطول الشاطئ دون أن أخيف الناس. قد لا يبدو ذلك شيئاً كثيراً، لكن بالنسبة إليّ، كانت الحرية التي لم أعرفها إلّا لماماً».

توقَّفَ. نظرَ إلى إيدي.

«هل تفهم؟ لماذا أنت هنا؟ إنها ليست جنّتك **أنت**. إنها جنّتي أنا».

خُذ قصة واحدة، من زاويتَي نظر مختلفتَين.

خُذ صباحَ أحدٍ ماطر من شهر يوليو، في أواخر العشرينيات،

عندما كان إيدي وأصدقائه يرمون كرة بيسبول حصل عليها إيدي في عيد ميلاده قبل نحو سنة. خُذ اللحظة التي تطير فيها الكرة فوق رأس إيدي وتخرج إلى الشارع. إيدي، مرتدياً سروالاً بنيّاً مُصفرّاً وطاقية صوفية، يطاردها، ويجري أمام سيارة، سيارة فورد من طراز (A). تُطلق السيارة صريراً حادّاً، تنحرف، وتتفاداه بالكاد. يرتعش، يتنفّس الصعداء، يمسك الكرة، ثم يسارع بالعودة إلى أصدقائه. سرعان ما تنتهي المباراة ويركض الأطفال إلى صالة ألعاب العُملة ليلعبوا على ماكينة «اصطياد الهدايا»، حيث يمكنك التقاط دمىً صغيرة بذراعٍ آليّة تشبه المخلب.

الآن خُذ تلك القصة نفسها من زاوية أخرى. رجلٌ وراء مقود سيارة فورد طراز (A)، استعارها من صديق ليتعلّم عليها القيادة. الطريق مبلَّل من المطر الصباحي. فجأة، تنطّ كرة بيسبول قاطعة الشارع، ويأتي صبي ليركض وراءها. يضرب السائق على الفرامل ويلوي عجلة القيادة بكل قوته. تتزحلق السيارة، وتطلق الإطارات صريراً عالياً.

يستعيد الرجل سيطرته بطريقة ما، وتمضي السيارة في طريقها. لقد اختفى الطفل في المرآة الأمامية، لكن جسد الرجل لا يزال متأثراً، يفكر كم كان قريباً من مأساة. لقد أَجبَرت دفقة الأدرينالين قلبَه على أن يضخ بعنف، وقلبه ليس قويّاً، والضخُّ يستنزفه. يشعر الرجل بدوخة ويسقط رأسه للحظة. تكاد سيارته تصطدم بأخرى. يُطلق السائق الثاني نفيره، ينحرف الرجل ثانية، مديراً عجلة القيادة، ضاغطاً على الفرامل. ينزلق في شارع ثم ينعطف في زقاق. سيارته لا تتوقف إلّا عندما تصطدم بمؤخرة شاحنة متوقفة. يعلو صوت تصادم صغير. تتحطم المصابيح الأمامية. الصدمة تجعل الرجل

يرتطم بعجلة القيادة. ينزف رأسه. يترجّل من السيارة، يعاين الضرر الذي أصابها ثم ينهار على الرصيف المبلّل. ذراعه تنبض. صدره يؤلمه. إنه صباح أحدٍ. الزقاق خالٍ. يظلُّ هناك، لا يراه أحد، مرتخياً على جنب السيارة. لا يعود الدم يتدفّق عبر شرايينه التاجية إلى قلبه. تمرّ ساعة. يراه شرطيّ. الفحص الطبيّ يعلن وفاته. يسجَّل سبب الوفاة «أزمة قلبية». ما من أقارب معروفين.

خُذ قصة واحدة، انظر إليها من زاويتَين مختلفتَين. إنه اليوم نفسه، اللحظة نفسها، لكنّ زاويةً تنتهي نهاية سعيدة، في صالة ألعاب، حيث الصبي الصغير ذو السروال البني المصفرّ يُسقط بضع سنتات في ماكينة «اصطياد الهدايا»، بينما تنتهي الزاوية الأخرى نهاية حزينة، في مشرحة المدينة، حيث ينادي عاملٌ زميلَه ليتعجّبا من الجلد الأزرق لتلك الجثة التي وصلت لتوّها.

«هل ترى؟»، همسَ الرجل الأزرق، وقد أنهى القصة من وجهة نظره. «أيها الصبي الصغير؟».

شعر إيدي برعشة.

هَمَس: «أوه. لا!».

اليوم عيد ميلاد إيدي

إنه في الثامنة من عمره. يجلس على حافة كَنَبة منقوشة بالمربعات، ذراعاه معقودتان في غضب. أمه عند قدميه، تربط حذاءه. أبوه أمام المرآة، يعدّل ربطة عنقه.

يقول إيدي: «لا أريد أن أذهب».

تقول أمه، دون أن ترفع رأسها: «أعرف، لكن يجب أن نذهب. أحياناً يتوجّب علينا أن نفعل أشياءً عندما تحدث أشياءٌ مؤسفة».

«لكنه عيد ميلادي».

ينظر إيدي بأسى في الغرفة باتجاه لعبة التركيب الهندسية في الزاوية، كومة من العوارض المعدنية وثلاث عجلات مطاطيّة صغيرة. كان إيدي يصنع شاحنة. إنه ماهر في تركيب الأشياء معاً. كان يأمل أن يُريها لأصدقائه في حفل عيد ميلاده. عوضاً عن ذلك، يجب أن يذهبوا إلى مكانٍ ما وأن يتأنّقوا. يفكّر: هذا ليس عدلاً.

شقيقه جو، الذي يرتدي سروالاً صوفياً وربطة عنق فراشية، يدخل وفي يده اليسرى قفاز بيسبول. يلطمه بقوة. يلوي وجهه في وجه إيدي.

يقول جو: «هذا حذائي القديم. حذائي الجديد أفضل».

بجفل إيدي. يكره أن يُضطر إلى ارتداء ملابس جو القديمة.

تقول أمه: «توقّف عن هزّ قدميك».

ينوح إيدي: «إنها تؤلمني».

يصرخ والده: «كفى!». يرمي إيدي بنظرة لاهبة. يصمت إيدي.

في المقابر، لا يكاد إيدي يتعرّف على ناس الملاهي. الرجال الذين يرتدون عادة أردية ذهبية من قماش اللاميه وعمائم حمراء، الآن في بدلات سوداء مثل والده. النساء كأنهنّ يرتدين الفستان الأسود نفسه؛ منهنّ من يغطّين وجوههن بحجاب.

يراقب إيدي رجلاً يجرف التراب ويلقيه في حفرة. يقول الرجل شيئاً عن التراب. يمسك إيدي يد أمه ويَزرّ عينَيه في الشمس. يُفترض أن يكون حزيناً، يعرف ذلك، لكنه يعدّ الأرقام في سرّه، بدءاً من واحد، آملاً أن يعود له عيد ميلاده عند وصوله إلى 1000.

الدرس الأول

توسَّل إيدي: «أرجوك يا سيّد... لم أكن أعرف. صدقني... ساعدني يا ربّ، لم أكن أعرف».

أومأ الرجل الأزرق برأسه. «ما كان لك أن تعرف. كنتَ صغيراً جدّاً».

رجع إيدي خطوة إلى الخلف. شدَّ جسده وكأنه يستعد لعراك.

قال: «لكن الآن يجب أن أدفع الثمن».

«تدفع الثمن؟».

«ثمن خطيئتي. لهذا أنا هنا، صحّ؟ العدالة؟».

ابتسم الرجل الأزرق. «لا يا إدوارد. أنت هنا لكي أعلّمك شيئاً. كل الأشخاص الذين ستقابلهم هنا لديهم شيء يعلّمونه لك».

ظلَّ إيدي متشكّكاً. وظلت قبضته مضمومة.

قال: «ما هو؟».

«أنه ما مِن أفعال عشوائية. أننا جميعاً مرتبطون بعضنا ببعض.

أنك لا تستطيع أن تفصل حياة عن أخرى أكثر ممّا تستطيع أن تفصل نسمة عن الريح».

هزّ إيدي رأسه. «لقد كنا نرمي كرة. كان غباءً مني، أن أركض هناك بهذه الطريقة. لماذا تموت أنت بسبب ما فعلته أنا؟ هذا ليس عدلاً».

مدَّ الرجل الأزرق يده. قال: «العدل لا يحكم الحياة والموت. لو كان يحكمهما، لما مات الطيّبون صغاراً».

قَلَب كفّ يده إلى أعلى وفجأة أصبحا يقفان في مقبرة وراء مجموعة صغيرة من المشيّعين. كان كاهنٌ يقرأ من الكتاب المقدّس بجوار القبر. لم يستطع إيدي أن يرى الوجوه، فقط ظهوراً وقبعات وفساتين وسترات.

قال الرجل الأزرق: «جنازتي. انظر إلى المشيّعين. بعضهم حتّى لم يعرفني جيداً، مع ذلك جاءوا. لماذا؟ هل خَطَر لك أن تسأل؟ لماذا يجتمع الناس عندما يموت آخرون؟ لماذا يشعر الناس أن ذلك واجبٌ عليهم؟

«هذا لأن الروح البشرية تعرف، في أعماقها، أن كل الحيوات تتقاطع. الموت لا يأخذ شخصاً فحسب، بل يُفوِّت شخصاً آخر، وفي المسافة الصغيرة بين من أخذه الموت ومن فَوَّته، تتغير حيوات.

«تقول إنك كان يجب أن تموت بدلاً مني. لكن في الزمن الذي قضيتُه على الأرض، مات أناسٌ بدلاً مني أيضاً. الأمر يحدث كل يوم. عندما تضرب صاعقةٌ بعد دقيقة من ذهابك، أو تتحطم طائرة كان يمكن أن تكون فيها. عندما يسقط زميل لك مريضاً وأنت لا. نظن أن هذه الأشياء عشوائية. لكن ثمة توازن وراءها جميعاً. يذبل واحد لينمو آخر. الميلاد والموت جزء من كل.

«لهذا السبب ننجذب إلى الأطفال...». استدار إلى المشيّعين. «وإلى الجنازات».

نظر إيدي ثانية إلى الحشد المتجمّع حول القبر. تساءل هل شُيِّعت له جنازة. تساءل هل جاءه أحد. رأى الكاهن يقرأ من الكتاب المقدّس والمشيّعين يُنكّسون رؤوسهم. كان هذا يوم دفن الرجل الأزرق، قبل كل تلك السنين. كان إيدي هناك، صبيّاً صغيراً، يحضر المراسم متململاً، بلا فكرة عن الدور الذي لعبه فيها.

همس إيدي: «ما زلت لا أفهم. أي فائدة أتت من موتك؟».

أجاب الرجل الأزرق: «أنك عشت».

«لكننا لم نعرف أحدنا الآخر. كنتُ بمثابة الغريب عنك».

وضع الرجل الأزرق ذراعَيه على كتفَي إيدي. شعر إيدي بذلك الإحساس: دفء، دفء حنون.

قال الرجل الأزرق: «الغرباءُ أقارب لم تتعرّف إليهم بعد».

بهذه الكلمات، ضمّ الرجل الأزرق إيدي إليه. وعلى الفور، شعر إيدي بأن كلّ ما قد شعر به الرجل الأزرق في حياته يندفع بداخله، يسبح في جسده، الوحدة، العار، العصبية، الأزمة القلبية. انزلقت داخل إيدي مثل دُرج ينغلق.

هَمسَ الرجل الأزرق في أذنه: «سأرحل الآن. هذه الدرجة من الجنة انتهت بالنسبة إليّ. لكنك ستقابل آخرين».

قال إيدي، وهو يتراجع إلى الخلف: «انتظر. خبّرني بشيء واحد فقط. هل أنقذتُ الفتاة الصغيرة؟ في الملاهي. هل أنقذتُها؟».

لم يجبه الرجل الأزرق. انهار إيدي. «إذاً ضاعَ موتي هباءً، تماماً مثل حياتي».

قال الرجل الأزرق: «ما من حياة تضيع هباءً. الوقت الوحيد الذي نضيّعه هباءً هو الوقت الذي نقضيه في التفكير أننا وحدنا».

تراجع إلى الخلف باتجاه القبر وابتسم. وبينما كان يفعل، تحوَّل جِلده إلى أكثر درجات الكراميل جمالاً - ناعماً وناصعاً لا سوء فيه. وفكّر إيدي أنها أجمل بشرة وقعت عليها عيناه.

صاح إيدي: «انتظر»، لكنه رُفع فجأة في الهواء، بعيداً عن المقبرة، محلّقاً فوق المحيط الرمادي الهائل. تحته، رأى أسطح روبي بير القديمة، القمم المستدقّة والأبراج، الرايات ترفرف في النسيم.

ثم لم يعد هناك.

الأحد، 3 مساءً

هناك في الملاهي، وقف الحشد ساكناً حول حطام «هاوية فريدي». النساء المسنّات لمسن حلوقهنّ. الأمهات سحبن أطفالهنّ بعيداً. عدة رجال مفتولي العضلات في قمصان بلا أكمام تقدّموا إلى الأمام، وكأن الحاصل أمامهم شيءٌ عليهم معالجته، لكنْ فور وصولهم إلى هناك، اكتفوا هم أيضاً بالنظر، عاجزين. تراجعت الشمس، فجعلت الظلال أكثر وضوحاً، وأجبرت الحشد على حماية عيونهم وكأنهم يرفعون أيديهم بالتحية.

ما مدى سوء الوضع؟ كان الناس يتهامسون. من مؤخّرة الحشد، اندفع دومينغيز يشقّ طريقه، وجهه أحمر، وقميص صيانته مخضلّ بالعرق. رأى المشهد الدامي.

«آه لا، لا، إيدي»، انتحبَ صارخاً وهو يقبض على رأسه. وصل عمّال الأمن. دفعوا الناس إلى الوراء. لكن بعدها وقفوا، هم أيضاً، عاجزين، أيديهم في أجنابهم، ينتظرون الإسعاف. بدا وكأن الجميع -الأمهات، الآباء، الأطفال بأكواب الصودا العملاقة في أيديهم- كانوا أكثر ذهولاً من أن ينظروا وأكثر ذهولاً من أن يغادروا. كان الموت عند أقدامهم، مثل لحن كرنفاليّ يصدح من سمّاعات الحديقة.

ما مدى سوء الوضع؟ تعالت صافرات الإنذار. وصل رجالٌ في أزياء رسمية. شُدَّ شريط أصفر حول المنطقة. أنزلت كبائن الحديقة قضبانها المعدنية. أُغلقت الألعاب إلى أجل غير مسمّى. انتشر خبر الحادث في أرجاء الشاطئ، وبحلول الغروب، كانت روبي بير خاوية.

اليوم عيد ميلاد إيدي

من غرفة نومه، حتى والباب مغلق، يستطيع إيدي أن يشمّ قطع اللحم التي تشويها أمه مع الفلفل الأخضر والبصل الأحمر الحلو، رائحة خشبيّة قوية يحبها.

تصيح من المطبخ: «إيديييي! أين أنت؟ كلُّنا هنا».

ينقلبُ نازلاً من السرير ويضع كتاب القصص المصورة جانباً. إنه في السابعة عشر اليوم، كبيرٌ على هذه الأمور، لكنه لا يزال يستمتع بالفكرة - أبطالٌ ملوّنون مثل «الشبح»، يحاربون الأشرار، وينقذون العالم. كان قد أعطى مجموعته لأبناء عمّه الذين في سنّ المدرسة، والذين جاءوا من رومانيا إلى أميركا قبل بضعة أشهر. استقبلتهم أسرة إيدي على رصيف الميناء ثم انتقلوا إلى غرفة النوم التي كان إيدي يتقاسمها مع شقيقه، جو. أبناء العم لا يتكلمون الإنجليزية، لكنهم يحبّون القصص المصورة. على أي حال، ذلك يمنح إيدي حجّةً لكي يبقيها حوله.

«ها هو فتى عيد الميلاد»، تصيح أمه مبتهجة عندما يدخل الغرفة متلكّئاً. يرتدي قميصاً أبيض مزرَّراً بالكامل وربطة عنق زرقاء تقرص على رقبته العضليّة. تتعالى صيحات الترحاب وتُرفع أكواب البيرة في أيدي الزوّار المجتمعين: أقارب، أصدقاء، عمّال في الملاهي. والد إيدي يلعب الورق في الزاوية، وسط سحابة صغيرة من دخان السيجار.

يصيح جو: «إيه، ماما، خمّني ماذا حدث؟ إيدي قابل فتاةً ليلة أمس».

«أووووه. فعلاً؟».

يشعر إيدي بالدم يتدفّق في عروقه.

«نعم. قال إنه سيتزوّجها».

يقول إيدي لجو: «أغلق فمك».

يتجاهله جو. «نعم، دخل إلى الغرفة جاحظ العينَين، وقال: «جو، لقد قابلتُ الفتاة التي سأتزوجها!»».

يهتاج إيدي: «قلت لك أن تخرس!».

يسأل أحدهم: «ما اسمها يا إيدي؟».

«هل تذهب إلى الكنيسة؟».

يتجه إيدي إلى أخيه ويضربه بقوة في ذراعه.

«أووو!».

«إيدي!».

«قلت لك أن تخرس!».

يسارع جو بالقول: «ورقصَ معها على أنغام الكمان!».

لطمةٌ.

«أووو!».

«اخرس!».

«إيدي! توقف!».

حتى أبناء العم يرفعون رؤوسهم الآن -الشجار يفهمونه- بينما يشتبك الشقيقان ويتخبّطان هنا وهناك، فيضطر الجالسون على الكنبة إلى إخلائها، حتى يضع والد إيدي سيجاره ويصرخ:

«كفّا عن ذلك قبل أن أصفعك على وجهك أنتَ وهو!».

ينفصل الشقيقان، لاهثَين، يتبادلان نظرات نارية. يبتسم بعض الأقارب الأكثر سنّاً. تهمس واحدة من الخالات: «لا بدّ أنه يحب هذه الفتاة بحقّ».

لاحقاً، بعد أن التُهمت شرائح اللحم المميزة ونُفخت الشموع وغادر معظم الضيوف عائدين إلى بيوتهم، تُشغّل والدة إيدي الراديو. ثمة أخبار عن حرب في أوروبا، ويقول والد إيدي شيئاً عن صعوبة الحصول على الأخشاب والأسلاك النحاسية إذا ساءت الأمور. هذا سيجعل صيانة الملاهي مهمة مستحيلة تقريباً.

تقول والدة إيدي: «يا لها من أخبار فظيعة. ليس في عيد ميلاد».

تُدير المؤشّر إلى أن تنبعث الموسيقى من الصندوق الصغير، أوركسترا تعزف لحناً من موسيقى الـ«سوينج»، فتبتسم وتدندن معه. ثم تمضي إلى إيدي، المسترخي في كرسيه، يُنقّر في آخر قطع الكعكة. تخلع مريلتها، وتطويها على كرسي، ثم ترفع إيدي من يديه.

تقول له: «أرني كيف رقصتَ مع صديقتك الجديدة».

«آو، ماما».

«هيا».

ينهض إيدي وكأنه يُساق إلى حتفه. ويبتسم شقيقه شامتاً. لكن أمّه، بوجهها المدوّر الجميل، تظل تدندن وتخطو إلى الأمام والخلف، حتى ينسجم إيدي مع خطوتها الراقصة.

تُغني مع اللحن: «دااا داا دييبي... عندما تكون معيييبي... دا دا... النجوم والقمر... دا... دا... دا... في يونيو...».

يدوران في غرفة المعيشة حتى ينفجر إيدي ضاحكاً. لقد صار

أطول من أمه بخمسة عشر سنتيمتراً كاملة، مع ذلك تدور به بسهولة ويسر.

تهمس: «إذاً، هذه الفتاة تعجبك؟».

ترتبك خطوة إيدي.

تقول: «لا بأس. أنا سعيدة لأجلك».

يدوران باتجاه الطاولة، تُمسك والدة إيدي بجو وتشدّه إلى أعلى.

تقول: «الآن ارقصا معاً».

«معه؟».

«ماما!».

لكنها تُصرّ، وينصاعان، وسرعان ما يضجّ جو وإيدي بالضحك ويتعثّران في أحدهما الآخر. يشبكان أيديهما ويتحرّكان، صعوداً وهبوطاً في دوائر واسعة مبالغ في وسعها. يدوران ويدوران حول الطاولة، وسط بهجة أمهما، بينما آلات الكلارينت تقود لحن الراديو وأولاد العم الرومانيون يصفّقون معهما والنفحات الأخيرة من اللحم المشوي تتبخر في هواء الحفل.

ثاني شخص يقابله إيدي في الجنة

شعرَ إيدي بقدميه تلمسان الأرض. كانت السماء تتبدَّل مجدّداً، من الأزرق بلون الكُوبَلت إلى الرمادي بلون الفحم، وكان إيدي الآن محاطاً بأشجار ساقطة وأنقاض مسوَّدة. أمسك بذراعيه، وكتفيه، وفخذيه، وربلتَي ساقَيه. شعر أنه أقوى من ذي قبل، لكنْ عندما حاول أن يلمس أصابع قدميه، لم يعد بمقدوره ذلك. لقد اختفت المرونة. انتهى الإحساس المطاطيّ الطفوليّ. كل عضلة من عضلاته كانت مشدودة مثل وتر بيانو.

نظر حوله إلى الأرض الجرداء الخالية من الحياة. على تلّة كبيرة رأى عربةً معطوبةً وعظاماً متحلِّلة لحيوان ما. شعر إيدي بكرباج هواء ساخن يلفح وجهه. وانفجرت السماء متحوِّلة إلى الأصفر اللاهب.

ومجدَّداً، ركض إيدي.

أمسى ركضه الآن مختلفاً، بخطوات عسكرية صارمة. سمع رعداً -أو شيئاً أشبه بالرعد- انفجارات، أو فرقعات قنابل - فارتمى

غريزيّاً على الأرض، هابطاً على بطنه، ثم رفع نفسه بمعاونة من ساعدَيه. انفتحت السماء على مصراعيها وانهمر منها المطر، وابلٌ كثيف، بنيّ اللون. أحنى إيدي رأسه وزحف في الطين، باصقاً الماء القذر الذي تجمّع حول شفتيه.

أخيراً شعر برأسه تحتكّ بشيء صلب. رفع رأسه ليرى بندقية مغروسة في الأرض، فوقها خوذة مُعلَّق من مقبضها قلادة تعريفية. طَرفَ عينَيه في المطر، وجسّ القلادة بأصابعه، ثم سرعان ما تراجع مترنحاً على نحو مسعور إلى داخل جدار مُنَخْرَب من الفروع المتشابكة المدلّاة من شجرة تين بنغاليّ هائلة. غَطسَ في عتمتها. سحبَ ركبتيه رابضاً. حاول أن يلتقط أنفاسه. لقد وجد الخوف سبيله إليه، حتى في الجنة.

كان الاسم على القلادة اسمه.

الشبّان يذهبون للحرب. مُجبرين أحياناً، وبرغبتهم في أحيان أخرى. ودائماً يشعرون أن ذلك واجب عليهم. ينبع هذا الشعور من قصص الحياة الحزينة متعدِّدة الطبقات، التي خَلطت، على مرّ العصور، بين الشجاعة ورفع السلاح، وبين الجبن ووضع السلاح.

عندما دخلَت البلاد الحرب، استيقظ إيدي مبكراً ذات صباح مطير، حلق ذقنه، مشَّط شعره، وسجّل اسمه متطوعاً. كان آخرون يحاربون. وهو أيضاً سيحارب.

لم ترغب والدته في ذهابه، أما والده، عندما سمع الخبر، فقد أشعل سيجارة ونفخ الدخان ببطء.

«متى؟»، كان هذا سؤاله الوحيد.

ولأنه لم يُطلِق بندقية حقيقية في حياته، بدأ إيدي التمرُّن في

قاعة الرماية في روبي بير. كنتَ تدفع خمسة سنتات فتُدمدم الآلة، تضغط الزناد وتُطلق رصاصات معدنية على صور لحيوانات برّية، أسد أو زرافة. صار إيدي يذهب كل مساء، بعد رفع عتلات الفرامل الخاصة بـ«سكك حديد ليتل فولكس المصغَّرة»، المسمّاة على اسم أبطال القصص المصوّرة الشهيرة. كانت روبي بير قد أضافت عدداً من الألعاب الجديدة الأصغر حجماً، لأن القطار الأفعواني، بعد «الكساد الكبير»، أصبح مكلِّفاً جدّاً. كانت «السكك الحديدية المصغَّرة» تؤدّي الغرض نفسه، فقط كانت عربات القطار لا تزيد في ارتفاعها عن فَخُذ رجل بالغ.

ظلَّ إيدي، قبل أن يتطوّع، يعمل ليدّخر النقود من أجل دراسة الهندسة. كان ذلك هدفه – أراد أن يبني أشياءً، حتى إن ظلَّ شقيقه جو يقول: «بالله عليك يا إيدي، ذكاؤك لا يسمح لك بذلك».

لكن فور بدء الحرب، انهارت الأعمال في الملاهي. كان معظم زبائن إيدي الآن من نساء فرادى بصحبة أطفال، وقد ذهب آباؤهم إلى ساحات القتال. أحياناً كان الأطفال يطلبون من إيدي أن يرفعهم فوق رأسه، وعندما يطاوعهم إيدي، كان يرى ابتسامات حزينة على وجوه الأمهات. قال في نفسه إن الرَّفْعة صحيحة لكن المشكلة في الذراعَين الرافعتَين. وما لبث إيدي أن فكّر أنه سينضمّ إلى هؤلاء الرجال في الأصقاع البعيدة، وأن حياته في تشحيم القضبان ورفع عتلات الفرامل ستنتهي. كانت الحرب بالنسبة إليه دعوةً للرجولة. ولعلّه، أيضاً، يجد من يفتقده.

في واحدة من هذه الليالي الأخيرة، كان إيدي منحنياً على بندقية صغيرة من بنادق صالة الألعاب، يُطلق الرصاص بتركيز عميق. **بانغ! بانغ!** حاول أن يتخيل نفسه يطلق ناراً حقيقيّة على عدو

حقيقيّ. **بانغ!** هل سيثيرون جلبة عندما يُرديهم -**بانغ!**- أم سيسقطون وكفى، مثل الأسُود والزرافات؟

بانغ! بانغ!

«تتمرن على القتل، أليس كذلك يا فتى؟».

كان ميكي ثيبا يقف وراء إيدي. شعره بلون مثلجات الفانيليا الفرنسي، مبلَّلاً ومتعرّقاً، ووجهه أحمر من المشروب الذي كان يتجرّعه أيّاً كان. هزّ إيدي كتفيه وعاد إلى إطلاق الرصاص. **بانغ!** إصابة أخرى. **بانغ!** وواحدة أخرى.

نخر ميكي: «هممممف».

تمنّى إيدي أن يبتعد ميكي ويتركه يركّز على أهدافه. كان يشعر بالسكّير العجوز وراءه. يسمع أنفاسه المتقطعة، الهسيس الذي يصاحب دخول الهواء وخروجه من أنفه، مثل منفاخ يضخّ في عجلةِ دراجة.

ظلَّ إيدي يطلق الرصاص. فجأة، شعر بقبضة مؤلمة على كتفه.

«اسمع يا فتى»، كان صوت ميكي دمدمة خفيضة. «الحرب ليست لعبة. إذا تحتّم عليك أن تُطلق رصاصة فاطلقها، هل تسمع؟ لا مجال للذنب. لا مجال للتردُّد. تُطلق وتُطلق ولا تُفكّر فيمن تُرديه أو تقتله أو لماذا، هل تسمعني؟ إذا أردتَ أن تعود إلى الديار ثانية، فاطلق النار، ولا تفكر».

شدَّ قبضته أكثر على كتفه.

«التفكير هو الذي يقتل المرء».

استدار إيدي وحدّق في ميكي، صفعَهُ ميكي بقوة على خدّه ورفع إيدي غريزيّاً قبضته ليثأر لنفسه. لكنّ ميكي تجشّأ وتراجع

بخطىً مترنّحة. ثم نظر إلى إيدي وكأنه سيبكي. توقفت البندقية الميكانيكية عن الدمدمة. لقد انتهت السنتات الخمسة التي وضعها إيدي.

الشبّان يذهبون إلى الحرب. مُجبرين أحياناً، وبرغبتهم في أحيان أخرى. بعدها ببضعة أيام، حزم إيدي متاعه في حقيبة ظهر أسطوانيّة، وترك الملاهي وراءه.

توقف المطر. أطلق إيدي، مرتعشاً ومبللاً تحت شجرة التين البنغالي، تنهيدة طويلة جهيدة. أزاح الفروع إلى الجانبين فرأى البندقية لا تزال مغروسة في الأرض، ومن فوقها الخوذة. تذكّر لماذا كان الجنود يفعلون ذلك: كانت طريقة لتعيين قبور موتاهم.

زحف خارجاً على ركبتيه. هناك في البعيد، تحت سلسلة صغيرة من التلال، كانت بقايا قرية، قُصفت وحُرقت حتى صارت أنقاضاً. للحظة، حدّق إيدي، فمه مفتوح قليلاً، عيناه تضيقان لتجعلا المشهد أكثر وضوحاً. ثم انقبض صدره مثل رجلٍ سمع لتوّه خبراً مشؤوماً. هذا المكان. كان يعرفه. لقد سكن أحلامه.

«جُدريّ»، قال صوتٌ فجأة.

استدار إيدي بسرعة.

«جُدريّ، تيفوئيد، تيتانوس. حُمّى صفراء».

كان الصوت يأتي من أعلى، من وسط الأشجار.

«لم أكتشف قَطّ ما هي الحمّى الصفراء. اللعنة. لم أقابل إنساناً أصيب بها».

كان الصوت قويّاً، الكلمات ممطوطة قليلاً على طريقة أهل الجنوب، وحوافها خشنة، وكأن صاحبها قد ظلّ يصرخ لساعات.

«أخذتُ كل هذه التطعيمات لكلّ هذه الأمراض ومِتُّ هنا بأي حال. سليماً معافىً مثل الحصان».

اهتزت الشجرة. سقطت ثمرة صغيرة أمام إيدي.

قال الصوت: «هل تحبّ التفاح؟».

نهض إيدي وتنحنح.

قال: «اخرج».

قال الصوت: «اصعد».

ووجد إيدي نفسه في الشجرة، قُرب القمة، التي كانت طويلة مثل بناية مكتبيّة. كان راكباً فوق فرع كبير، ساقاه على الجانبَين، والأرض من تحته تبدو هاويةً بعيدة. رغم الفروع الأصغر وأوراق التين الغليظة، استطاع إيدي تبيُّن الهيئة المبهمة لرجل في زيّ عسكريّ، يجلس مستنداً على جذع الشجرة. كان وجهه مغطىً بمادة سوداء كالفحم. وكانت عيناه حمراوين متوهجتَين مثل مصباحَين صغيرَين.

ابتلع إيدي ريقَه بقوة.

همسَ: «كابتن؟ هل هذا أنت؟».

كانا قد خدما معاً في الجيش. كان الكابتن قائداً لمجموعة إيدي. حاربا في الفلبين وافترقا في الفلبين ولم يرَه إيدي بعد ذلك. عرف أنه مات أثناء القتال.

ظهر خيط دخان من سيجارة.

«لقد شرحوا لك القواعد أيها الجندي».

نظر إيدي إلى أسفل. رأى الأرض تحته من بعيد، لكنه عرف أنه لن يسقط.

قال: «أنا ميّت».

«هذا صحيح».

«وأنت ميّت».

«وهذا أيضاً صحيح».

«وأنت.. شخصي الثاني؟».

رفع الكابتن سيجارته عالياً. ابتسم وكأنه يقول: «**هل تُصدّق أن بإمكانك التدخين هنا؟**». ثم سحب نَفَساً عميقاً ونفخ سحابة بيضاء صغيرة.

«أراهن أنك لم تتوقعني، هه؟».

تعلّم إيدي أشياءَ كثيرة أثناء الحرب. تعلّم أن يركب فوق دبابة. تعلّم أن يحلِق ذقنه بماء بارد في خوذته. تعلّم أن يحاذر وهو يطلق النار من الخنادق الفردية، حتى لا يصيب شجرة فترتدّ عنها شظيةٌ تصيبه هو.

تعلّم التدخين. تعلّم السير بالخطوة العسكرية. تعلّم أن يعبر جسراً من الحبال وهو يحمل، في آنٍ واحد، معطفاً، ولا سلكيّ، وبارودة، وقناع غاز، وحاملاً ثلاثيّ القوائم للبندقية الآلية، وحقيبة ظهر، وعدداً من جرابات الطلقات على كتفه. تعلّم أن يشرب أسوأ قهوة تذوقها في حياته.

تعلّم بضع كلمات ببضع لغات أجنبية. تعلّم أن يبصق لمسافة بعيدة. تعلّم البهجة العصبية التي يشعر بها الجندي بعد نجاته من أولى المعارك، عندما يتبادل الرجال الضرب على الأكتاف والابتسام وكأن الأمر قد انتهى -**الآن يمكننا العودة إلى ديارنا!**- وتعلّم الكآبة

العميقة لمعركة الجندي الثانية، عندما يُدرك أن القتال لا ينتهي بعد معركة واحدة، فهناك المزيد والمزيد.

تعلّم أن يُصفِّر عبر أسنانه. تعلّم أن ينام على أرض صخرية. تعلّم أن الجَرَب آفةٌ صغيرة تسبب الحكّة تثقُب لنفسها جحوراً في جلدك، خاصة إذا ظللتَ ترتدي الملابس القذرة نفسها لأسبوع كامل. تعلّم أن عَظْم الإنسان يبدو أبيض حقّاً عندما ينشقّ عنه الجلد.

تعلّم أن يصلّي بسرعة. تعلّم في أيّ جيب يحفظ الخطابات إلى أسرته ومارغريت، تحسُّباً أن يعثر عليه رفاقه الجنود ميتاً. تعلّم أنك أحياناً تكون جالساً إلى جوار زميل في مخبأ، تتهامسان عمّا تشعران به من جوع، وبعد لحظة تسمع **ووووش** صغيرة ويسقط الزميل على وجهه ولا يعود جوعه يمثّل له مشكلة.

تعلّم، مع تحوّل السنة إلى اثنتين والاثنتين إلى ثلاثة، أن حتى الرجال الأقوياء مفتولي العضلات يتقيّأون على أحذيتهم عندما تبدأ طائرة النقل في إنزالهم، وأن حتّى الضبّاط يتكلّمون في نومهم في الليلة السابقة على المعركة.

تعلّم كيف يأخذ أسيراً، ولو أنه لم يتعلّم قَطّ كيف يصبح هو نفسه أسيراً. ثم ذات ليلة، على جزيرة فلبينيّة، وقعت مجموعته تحت قصف نيران كثيفة، فتفرّقوا بحثاً عن ملاجئ وأضيئت السموات وسمع إيدي أحد زملائه، من أحد الخنادق، يبكي مثل طفل، وصرخ فيه: «اخرس يا هذا» وأدرك أن الرجل يصرخ لأن جنديّاً من جنود العدو كان يقف فوقه حاملاً بندقية مصوّبة إلى رأسه، وشعر إيدي بشيء بارد يلمس رقبته، وأدرك أن جنديّاً آخر يقف وراءه.

أطفأ الكابتن سيجارته. كان أكبر من الجنود في فصيلة إيدي، رجلاً عاش طوال حياته في العسكريّة، طويلاً مهيباً له مِشية متبختِرة وذقن مذببة تجعله يشبه أحد نجوم السينما في تلك الأيام. كان معظم الجنود يحبونه، ولو أنه حادّ الطباع ولديه عادة الصراخ على بعد بوصات قليلة من وجهك، ما يجعلك ترى أسنانه، التي اصفرَّت بفعل التبغ. مع ذلك، كان الكابتن يتعهّد دائماً: «لن نترك أحداً وراءنا»، مهما حدث، وكان ذلك مصدر راحة لرجاله.

«كابتن...»، قالها إيدي ثانية، مذهولاً لا يزال.

«أسمعك».

«سيدي».

«لا حاجة إلى ذلك. لكن شكراً جزيلاً».

«لقد مرّ... إنك تبدو..».

«مثل آخر مرة رأيتني فيها؟». ابتسم ابتسامة عريضة، ثم بصق فوق فرع الشجرة. رأى الارتباك على وجه إيدي. «أنت محقّ. ما من سبب لأن أبصق وأنا هنا. أنت لا تمرض، أيضاً. أنفاسُك تظل على حالها دائماً. والأكل لا يُصدَّق».

الأكل؟ لا يفهم إيدي شيئاً من هذا. «كابتن، اسمع. هناك خطأ ما. ما زلتُ لا أعرف لماذا أنا هنا. لقد عشتُ حياة بليدة، تعرف؟ كنت أعمل في الصيانة. عشتُ في الشقة نفسها لسنوات، كنت أعتني بألعاب الملاهي، «الساقية العملاقة»، «القطار الأفعواني»، سفن فضائية صغيرة غبية. شيء لا يدعو للفخر. لقد جرفتني الحياة. ما كنت أقوله هو...».

ابتلع إيدي ريقه. «ما الذي أفعله هنا؟».

نظر الكابتن إليه بهاتين العينَين الحمراوين المتوهجتَين، وكبح

إيدي نفسه عن أن يسأله السؤال الآخر الذي كان يشغل باله الآن بعد لقائه مع الرجل الأزرق: هل قَتَل الكابتن أيضاً؟

قال الكابتن، وهو يحكّ ذقنه: «تعرف، لقد كنتُ أتساءل. الرجال في وحدتنا - هل ظلوا على تواصل؟ ويلنغهام؟ مورتون؟ سميتي؟ هل رأيت هؤلاء الشباب بعدها؟».

تذكّر إيدي الأسماء. الحقيقة أنهم لم يبقوا على تواصل. الحرب مثل المغناطيس، يمكنها أن تجعل الرجال يتجاذبون، لكنها مثل المغناطيس يمكنها أن تجعلهم يتنافرون أيضاً. الأشياء التي رأوها، الأشياء التي فعلوها. أحياناً يريدون أن ينسوا أمرها فحسب.

هزّ كتفيه: «للأمانة يا سيدي، لقد انقطع الاتصال بيننا بشكل ما. معذرة».

أوماً الكابتن برأسه وكأنه قد توقّع ذلك.

«وأنت؟ هل رجعت إلى تلك الملاهي التي وعدناك جميعاً بزيارتها إذا خرجنا أحياءً؟ ألعابٌ مجانية لكلّ العسكريين؟ فتاتان لكل رجل في «نفق الحب»؟ أليس ذلك ما قلتَه؟».

لاح على ثغر إيدي شبح ابتسامة. كان هذا ما قاله. ما قالوه جميعاً. لكنْ عندما انتهت الحرب، لم يأتِه أحد.

قال إيدي: «نعم، رجعتُ».

«ثم؟».

«ثم... لم أغادر بعدها أبداً. رسمتُ خططاً... لكن هذه الساق اللعينة. لا أعرف. لم تسر أي من الأمور كما أردت».

هز إيدي كتفيه. تفحّص الكابتن وجهه، وقد زرَّ عينيه، وخفضَ صوته.

سأله: «أما زلت تلعب بالمقذوفات؟».

«تحرّكوا!... تحرّكوا!... هيا، هيا!».

صرخ جنود العدو وهم يلكزونهم بحراب البنادق. ساقوهم كلهم كالقطيع، إيدي، وسميتي، ومورتون، ورابوزو، والكابتن، إلى أسفل تلّ شديد الانحدار، أيديهم فوق رؤوسهم. كانت قذائف الهاون تنفجر حولهم. رأى إيدي هيئةً تركض وسط الأشجار، ثم تسقط وسط دوي الرصاص.

حاول أن يلتقط صوراً بعقله وهم يسيرون في الظلام -أكواخ، طُرق، أي شيء يستطيع رؤيته- عارفاً أن معلومات كهذه يمكن أن تصبح ثمينة إذا قرّروا الهروب. تعالى هدير طائرة من بعيد، ملأ إيدي بموجة مفاجئة، مقزّزة من اليأس. إنه العذاب الداخلي لدى كل جندي يسقط في قبضة العدوّ، المسافة القصيرة بين الحرية والأسر. لو استطاع إيدي فقط أن يقفز عالياً ويقبض على جناح الطائرة، لأخذته وطارت بعيداً عن هذا الخطأ.

عوضاً عن ذلك، قُيِّد هو والآخرون من المعاصم والكواحل. طُرحوا داخل ثكنة من الخيزران. كانت الثكنة تقوم على ركائز فوق الأرض الموحلة، وظلّوا هناك لأيام، أسابيع، شهور، يُجبرون على النوم فوق أكياس من الخيش محشوّة بالقش. يقضون حاجتهم في سطول من الفخار. في الليل، يزحف حرّاس العدوّ تحت الكوخ وينصتون إلى محادثاتهم. مع مرور الوقت، أصبحوا يقولون أقل وأقل.

هزلت أجسادهم ووهنت. برزت ضلوعهم من تحت جلودهم - حتى رابوزو، الذي كان الفتى البدين عندما جُنّدوا. كان طعامهم مكوّناً من كُرات الأرز المليئة بالملح و، مرة يومياً، حساء بنيّ تطفو

فيه الحشائش. ذات ليلة، أخرج إيدي دبّوراً ميتاً من الطاسة. كان قد فقد أجنحته. وتوقف الآخرون عن الأكل.

بدا أن آسريهم لا يعرفون ماذا يفعلون بهم. في المساء، كانوا يدخلون حاملين حراب بنادقهم ويلوّحون بالنصال أمام أنوف الأميركيين، صارخين بلغة أجنبية، منتظرين إجابة. ولم يأتِ ذلك بأي نتيجة.

كانوا أربعة فقط، بحسب ما بدا لإيدي، وخمّن الكابتن أنهم، هم أيضاً، قد انجرفوا بعيداً عن وحدة أكبر عدداً وأصبحوا يسيّرون أمورهم يوماً بيوم، مثلما يحدث كثيراً في الحرب الحقيقية. كانت وجوههم ضاوية بارزة العظام، وشعورهم كتلاً ملبّدة داكنة. أحدهم بدا أصغر كثيراً من أن يكون جندياً. وآخر كانت لديه أكثر أسنان معوجّة رآها إيدي في حياته. أطلق الكابتن عليهم أسماء: مجنون واحد، مجنون اثنان، مجنون ثلاثة، ومجنون أربعة.

قال: «لا نريد أن نعرف أسماءهم. ولا نريدهم أن يعرفوا أسماءنا».

تكيّف الرجال مع الأسر، بعضهم أفضل من البعض. كان مورتون، وهو شاب نحيل ثرثار من شيكاغو، يتململ كلما سمع ضوضاء من الخارج، يحكّ ذقنه ويدمدم: «أوه، اللعنة، أوه، اللعنة، أوه، اللعنة...» حتى يقول له الآخرون أن يخرس. وكان سميتي، ابن رجل المطافئ من بروكلين، هادئاً معظم الوقت، لكنه كان كثيراً ما يبدو وكأنه يبتلع شيئاً ما، إذ تعلو تفاحة آدم وتهبط في رقبته؛ عَرَف إيدي بعد ذلك أنه كان يمضغ لسانه. رابوزو، الفتى أحمر الشعر من بورتلاند، بولاية أوريغون، كان يحافظ على وجه

جامد أثناء ساعات اليقظة، لكن في الليل كثيراً ما كان يستيقظ صارخاً، «ليس أنا! ليس أنا!».

أما إيدي، فكان يغلي من الغضب معظم الوقت. كان يضمُّ قبضته ويضربها في كفّه، ساعات تلو ساعات، بَراجِم الأصابع في الجلد، مثل لاعب البيسبول المتوتر الذي كانه في صباه. في الليل، يحلم أنه عاد إلى الملاهي، على لعبة الخيول الدوّارة المسماة «حصان السَّبَق»، حيث يتسابق الزبائن في دوائر حتى يدقّ الجرس. يسابق أصحابه، أو شقيقه، أو مارغريت. لكن بعد ذلك يتحوّل الحلم، فيرى المجانين الأربعة فوق المهور المجاورة، ينكزونه، يهزأون به.

كانت سنوات من الانتظار في ملاهي الرصيف البحري -انتظار انتهاء لعبة ما، انتظار تراجع الأمواج، انتظار أبيه لكي يتحدّث إليه- قد مرّنت إيدي على فنّ الصبر. لكنه أراد الخروج، وأراد الانتقام. كان يطحن فكّيه ويضرب كفّه ويفكر في كل الشجارات التي خاضها عندما كان في حيّه القديم، في المرة التي أرسل فيها ولدَين إلى المستشفى بغطاء صفيحة قمامة. كان يتصوّر ما سيفعله بهؤلاء الحرّاس لولا البنادق التي يحملونها.

ثم ذات صباح، استيقظ الأسرى على صراخ ووميض حراب وأمرهم المجانين الأربعة أن ينهضوا ثم قيّدوهم وساقوهم إلى داخل بئر. لم يكن ثمة ضوء. كانت الأرض باردة. كانت هناك معاول ومجارف ودلاء معدنية.

وقال مورتون: «إنه منجم فحم لعين».

منذ ذلك اليوم فصاعداً، أُجبر إيدي والآخرون على استخراج

الفحم من الجدران لمساعدة جهود العدوّ الحربية. البعض كان يجرف، والبعض يكشط، والبعض يحمل ألواحاً خشبية ويبني مثلثات لتدعيم السقف. كان هناك أسرى آخرون أيضاً، أجانب لا يتكلمون الإنجليزية وينظرون إلى إيدي بعيون جوفاء. كان الكلام ممنوعاً. كانوا يعطونهم كأس ماء واحدة كل بضع ساعات. وكانت وجوه الأسرى، بنهاية اليوم، تصبح سوداء على نحو يائس، وأعناقهم وأكتافهم تنبض من كثرة الانحناء.

في الشهور القليلة الأولى، كان إيدي يذهب للنوم بعد أن يضع صورة مارغريت قائمةً في خوذته أمام عينيه. لم يكن ممن اعتادوا على الصلاة، لكنه كان يصلّي على أي حال، يعدّ الليالي ويختلق الكلمات: «يا ربّ، سأعطيك تلك الأيام الستة إذا أعطيتني ستة أيام معها... سأعطيك تلك الأيام التسعة إذا أعطيتني تسعة أيام معها... سأعطيك تلك الأيام الستة عشر إذا أعطيتني ستة عشر يوماً معها...».

ثم، أثناء الشهر الرابع، وقع حادثٌ. أصيب رابوزو بطفح جلديّ قبيح وإسهال حادّ. لم يعد قادراً على تناول أي طعام. في الليل، تعرّق حتى اخضلّت ملابسه القذرة بالمياه. تبرّز على نفسه. لم تكن هناك ملابس نظيفة فاضطرّ إلى النوم عارياً على كيس الخيش، بينما غطّاه الكابتن بكيسه هو.

في اليوم التالي، في المنجم بالأسفل، لم يستطع رابوزو الوقوف إلّا بالكاد. لم تأخذ المجانين الأربعة أي شفقة به. عندما أبطأ في العمل، نكزوه بالعصيّ ليجعلوه يواصل الكشط.

دمدم إيدي: «اتركوه».

المجنون اثنان، الأكثر وحشية بين آسريهم، ضرب إيدي

بمؤخّرة حربته. سقط على الأرض، ودفقة من الألم تنتشر بين لوحَي كتفيه. دقَّ رابوزو بضع دقات واستخرج بضع قِطَع أخرى من الفحم، ثم انهار. صرخ المجنون اثنان فيه أن ينهض.

صاح إيدي، وهو يجاهد للوقوف على قدميه: «إنه مريض!».

ضربه المجنون اثنان ثانية.

همس مورتون: «اخرس يا إيدي. من أجل سلامتك».

انحنى المجنون اثنان على رابوزو. رفع جفنيه. تأوّه رابوزو. ارتسمت ابتسامة عريضة للغاية على وجه المجنون اثنين وقرقر بالضحك، وكأنه يتعامل مع طفل رضيع. ظلَّ يقول: «آه»، ويضحك. ظلَّ يضحك وينظر إليهم جميعاً، عيناه في عيونهم، ليتأكد أنهم جميعاً ينظرون إليه. ثم سحب مسدسه، وكبسه على أذن رابوزو، وأطلق النار في رأسه.

شعر إيدي بجسده ينشقّ نصفَين. غامت عيناه وسرى خدرٌ في جسده. ظلَّ صدى الطلقة معلّقاً في هواء المنجم بينما اخضلّ وجه رابوزو وسط بركة متمدِّدة من الدماء. وضع مورتون يديه على فمه. نكّس الكابتن رأسه. ولم يتحرك أحد.

ركل المجنون اثنان تراباً أسود فوق الجثة، ثم حدج إيدي بنظرة لاهبة وبصق عند قدمَيه. صرخ بشيء في المجنون ثلاثة والمجنون أربعة، اللذان ظهر عليهما الذهول شأنهما شأن الأسرى. للحظة، هزَّ المجنون ثلاثة رأسه ودمدم، وكأنه يتلو صلاة، جفناه مسدلان وشفتاه تتحركان باهتياج. لكن المجنون اثنين لوّح بالبندقية وصرخ ثانية فرفع المجنون ثلاثة والمجنون أربعة جثة رابوزو ببطء من قدميها وجرَّاها على أرض المنجم، مخلّفَين أثراً من الدم السائل الذي بدا،

في الظلام، مثل نَفَطٍ مُنسكِب. تركاه عند الحائط، بجوار أحد المعاول.

بعدها، توقف إيدي عن الصلاة. توقف عن عدّ الأيام. لم يعُد هو والكابتن يتحدّثان إلّا عن الهرب قبل أن يلقوا جميعاً المصير نفسه. قدَّر الكابتن أن الجهود الحربية للعدو يائسة، لهذا السبب يحتاجون إلى كلّ أسير نصف ميّت لكي يكشط لهم الفحم. كل يوم كان عدد الأجساد في المنجم يقل أكثر فأكثر. في الليل، كان إيدي يسمع قصف القنابل؛ وبدا أنها تقترب. قدّر الكابتن أن آسريهم، إذا ساءت الأمور، سوف ينسحبون، يدمّرون كل شيء. كان قد رأى خنادق تُحفر وراء ثكنات الأسرى وبراميل كبيرة من النفط توضَع فوق التلة المنحدرة.

هَمَس الكابتن: «النفط لإحراق الأدلّة. إنهم يحفرون قبورنا».

بعدها بثلاثة أسابيع، تحت سماء مضاءة بقمر أغبش، كان المجنون ثلاثة داخل الثكنات، في نوبة حراسة. كان معه حجران كبيران، بحجم قالب الطوب تقريباً، يحاول التلاعب بهما، فيقذفهما في الهواء بطريقة بهلوانية. لكنهما ظلّا يسقطان منه، فيلتقطهما، ويرميهما عالياً، ويُسقطهما ثانية. رفع إيدي، المغطّى برماد أسود، رأسَه، منزعجاً من الضوضاء الناجمة عن سقوط الحجرَين. كان يحاول النوم. لكنه الآن نهض ببطء. رؤيته صافية. شعر بأعصابه تُستثار عائدة إلى الحياة.

هَمَس قائلاً: «كابتن... هل أنت جاهز للتحرّك؟».

رفع الكابتن رأسه. «فيمَ تفكر؟».

أومأ إيدي برأسه تجاه الحارس: «في هذين الحجرين».

قال الكابتن: «ماذا عنهما؟».

هَمَس إيدي: «أنا ماهر في ألعاب القذف البهلوانية».

زرَّ الكابتن عينيه: «ماذا؟».

لكنّ إيدي كان يصيح بالفعل منادياً على الحارس: «إيه! أنت! أنت لا تفعلها بطريقة صحيحة».

حرّك كفيه على نحو دائري: «بهذه الطريقة! افعلها بهذه الطريقة! ناولني».

مدّ يديه: «أنا ماهر في الألعاب البهلوانية. ناولني».

نظر إليه المجنون ثلاثة بحذر. شعر إيدي أن فرصته مع هذا الحارس تحديداً، من بين كلّ الحراس. كان المجنون ثلاثة قد سَبَق وهرَّب للأسرى، أكثر من مرة، قطعاً من الخبز، يرميها لهم عبر فتحة الكوخ الصغيرة التي تؤدّي دور النافذة. قام إيدي بالحركة الدائرية ثانية وابتسم. اقترب منه المجنون ثلاثة، توقّف، عادَ لجلب حربته، ثم حمل الحجرَين إلى إيدي.

«هكذا»، قال إيدي، وبدأ يقذفهما بسهولة. كان قد تعلّم ذلك وهو في السابعة من عمره، من مؤدٍّ إيطالي يلعب بستة صحون في الوقت نفسه. قضى إيدي ساعات لا حصر لها يتمرّن بحصى الممشى الخشبي، بكُرات مطاطية، بأي أغراض يجدها أمامه. لم يكن أمراً مهمّاً. كان معظم فتيان الملاهي يتقنون ألعاب القذف البهلوانية.

لكنه الآن راح يتعامل مع الحجرَين باهتياج، يقذفهما على نحو أسرع، يفتن حارسه. ثم توقف، مدّ يده بالحجرَين، وقال: «هاتِ واحداً آخر».

نخر المجنون ثلاثة.

رفع إيدي ثلاثة أصابع في الهواء: «**ثلاثة أحجار، أتفهم؟ ثلاثة**».

الآن، كان مورتون وسميتي قد اعتدلا في جلستهما. وكان الكابتن يقترب بحذر.

دمدم سميتي: «إلامَ سيقودنا هذا؟».

ودمدم إيدي ردّاً عليه: «إذا استطعتُ الحصول على حجرٍ آخر...».

فتح المجنون ثلاثة الباب المصنوع من الخيزران وفعل ما أَمِل إيدي أن يفعله. صاح منادياً الآخرين. ظهر المجنون واحد ومعه حجر كبير وتبعه المجنون اثنان إلى داخل الغرفة. رمى المجنون ثلاثة الحجر إلى إيدي وصاح بشيء ما. ثم تراجع إلى الوراء، وهو يبتسم إلى الآخرَين، ويشير لهما أن يجلسا، وكأنه يقول: «تفرّجا على هذا!».

رمى إيدي الأحجار في موجة إيقاعية. كانت أحجاراً كبيرة بحجم كفّ يده. راح يغني لحناً من ألحان الكرنفالات. «دا، دا-دا-دا اااا...». ضحك الحرّاس. ضحك إيدي. ضحك الكابتن. ضحكة قسرية، ليشتري بعض الوقت.

غنّى إيدي: «**تعالوا.. تعالوا**»، متظاهراً أن الكلمات جزءاً من اللحن، انزلق مورتون وسميتي ببطء، وكأنهم يريدون متابعة العرض.

كان الحرّاس يستمتعون بهذا الإلهاء. ارتخت وقفَتهم. حاول إيدي أن يكتم أنفاسه. لحظات أخرى وحسب. رمى حجراً عالياً في الهواء، ثم تلاعب بالاثنين السفليَّين، ثم التقط الثالث، ثم كرّرها ثانية.

«آههه»، قالها المجنون ثلاثة، رغماً عن نفسه.

قال إيدي: «أعجبك ذلك؟». صارَ يتلاعب على نحو أسرع الآن. ظلَّ يرمي حجراً عالياً ويراقب عيون آسريه وهم يتابعونه في الهواء. وظلَّ يغني: «داد، دا-دا-دا ااا»، ثم: «**عندما أقول ثلاثاا!!**»، ثم: «دا، دا-دا-دا ااا...»، ثم: «**يا كابتن، الرجل على اليساااار...**».

عَبَس المجنون اثنان مرتاباً، لكنّ إيدي ابتسم كما كان مؤدّو العروض البهلوانية يبتسمون في روبي بير عندما يشعرون أن الجمهور يفلت منهم. «انظر هنا، انظر هنا، انظر هنا!»، دندن إيدي مهدهداً. «أعظم عرض على سطح الأرض، يا صاحبي!».

أسرع إيدي أكثر، ثم راح يعدّ، «واحد.. اثنان...»، ثم رمى أحد الأحجار أعلى من كل مرة. وتابعه المجانين وهو يرتفع.

«الآن»، صرخ إيدي. وفي وسط لعبته البهلوانية أمسك حجراً و، مثل رامي البيسبول الماهر الذي طالما كانه، رماه بقوة في وجه المجنون اثنين، كاسراً أنفه. أمسك إيدي بالحجر الثاني ورماه، بيده اليسرى، مباشرة في ذقن المجنون واحد، الذي سقط على ظهره فانقضَّ عليه الكابتن، مختطفاً حربته. أما المجنون ثلاثة، بعد أن تجمّد للحظة، فمدّ يده إلى مسدسه وأطلق النار مسعوراً بينما قبضَ مورتون وسميتي على ساقَيه. طاح الباب منفتحاً وهرع المجنون أربعة إلى الداخل، ورمى إيدي الحجر الأخير عليه فأخطأ رأسه ببضعة سنتيمترات، لكنه عندما انحنى، كان الكابتن في الانتظار بجوار الحائط بالحربة، التي غرسها في القفص الصدري للمجنون أربعة بقوة بالغة سقط معها فوق ضحيته وانقلبا خارج الباب. وإذ فارَ الأدرينالين في دماء إيدي، قفز على المجنون اثنين ولكمَه في وجهه لكمة أقوى من أي لكمة وجَّهها من قبل في شارع بتكين. أمسك

حجراً وضربه في جمجمته، مرة بعد مرة، حتى نظر إلى يديه ورأى مادة لزجة بشعة المنظر أدرك أنها خليطٌ من دم وجلد ورماد فحم - ثم سمع طلقة رصاص وقبض بيديه على رأسه، مُلطِّخاً صدغيه بالمادة اللزجة. رفع رأسه ورأى سميتي يقف فوقه، ممسكاً بأحد مسدسات العدوّ. ارتخى جسد المجنون اثنين. كان ينزف من صدره.

دمدم سميتي: «لأجل رابوزو».

في غضون دقائق، كان الحرّاس الأربعة صَرعى.

الآن، كان الأسرى يركضون، مهزولين وحفاة ومغطين بالدماء، باتجاه التلّ المنحدر. كان إيدي قد توقّع إطلاق نار، وقتال مزيدٍ من الحراس، لكنهم لم يروا أحداً. كانت الأكواخ الأخرى خاوية. في الحقيقة، كان المعسكر بأكمله خاوياً. تساءل إيدي منذ متى وهم وحدهم مع المجانين الأربعة.

همسَ الكابتن: «الأرجح أن الآخرين فرّوا عندما سمعوا القصف. نحن آخر مجموعة تغادر».

كانت براميل النفط موضوعة عند أول مرتفعات التلّ. كان مدخل منجم الفحم لا يبعد أكثر من مئة متر. كان ثمة كوخ مؤن قريب وتأكّد مورتون من خلوّه، ثم اندفع إلى الداخل؛ خرج وذراعاه ممتلئتان بالقنابل اليدوية، والبنادق، وقاذفتَي لهب لهما مَظهرٌ بدائيّ.

قال: «هيا نحرق كل شيء».

اليوم عيد ميلاد إيدي

مكتوب على الكعكة «حظّ سعيد! قاتِل بضراوة!»، وعلى الجنب، بطول الحافة المزيَّنة بالفانيليا، أضاف شخصٌ ما كلمات: «عد إلى بيتك سريعاً»، بحروف زرقاء متعرّجة، لكن حروف كلمة «سريعاً» Soon أُدغمت معاً، فأصبحت مثل Son، «يا بنيّ».. «عُد إلى بيتك يا بنيّ».

كانت والدة إيدي قد غسلت الملابس التي سيرتديها في اليوم التالي وكَوَتها. علَّقتها على شماعة في مقبض دولاب ملابسه ووضعت حذاءه الأنيق تحتها.

إيدي في المطبخ، يلعب مع أولاد عمّه الرومانيين، يداه وراء ظهره وهم يحاولون لكمه في معدته. يشير أحدهم من نافذة المطبخ إلى «الخيول الباريسية الدوّارة»، التي أُضيئت من أجل زبائن المساء.

يصيح الطفل: «أحصنة!».

ينفتح الباب الأمامي ويسمع إيدي صوتاً يجعل قلبه يقفز، حتى الآن. يتساءل إن كان ذلك ضَعفاً لا يجب أن يأخذه معه إلى الحرب.

تقول مارغريت: «إيه، إيدي».

وها هي، تقف بباب المطبخ، تبدو رائعة، ويشعر إيدي بتلك

الدغدغة المألوفة في صدره. تنفُض قليلاً من قطرات المطر عن شعرها وتبتسم. تُمسك بعلبة صغيرة في يديها.

«أحضرتُ لك شيئاً. لعيد ميلادك، و، طيّب... لرحلتك أيضاً».

تبتسم مجدداً. يشعر إيدي برغبة عارمة في احتضانها، يفكّر أنه سينفجر. لا يعبأ بما في العلبة. فقط يريد أن يتذكّرها وهي تمسكها بيديها وتمدّها إليه. كالعادة، مع مارغريت، يريد إدوارد دائماً أن يُجمّد الزمن.

يقول: «إنها منتفخة».

تضحك: «لم تفتحها بعد».

يقترب منها: «اسمعي. هل -».

«إيدي!»، يصيح أحدهم من الغرفة الأخرى. «هيا لتطفئ الشمع».

«نعم! نحن جائعون!».

«أوه، سال، اهدأ».

«لكننا جائعون».

ثمة كعكة وبيرة وحليب ولفافات سيجار ونخبٌ لنجاح إيدي، وثمة لحظة حيث تبدأ أمه في البكاء وتحتضن ابنها الآخر، جو، الذي سيظلّ داخل البلاد بسبب قدمه المسطّحة.

لاحقاً في تلك الليلة، يمشي إيدي مع مارغريت في المنتزه، يعرف أسماء كل قاطع تذاكر وكل بائع طعام وكلهم يتمنّون له حظّاً طيباً. بعض النساء الأكبر سنّاً تدمع عيونهنّ، ويفهم إيدي أن لهنّ أبناء غادروا بالفعل.

يشتري هو ومارغريت حلوى التوفي، والعسل الأسود، وتوت

الجبل، ومشروبات غازية. يلتقطان قطعاً من الكيس الأبيض الصغير، تتعارك أصابعهما في شقاوة. في صالة ألعاب العملات الفضية، يسحب إيدي ذراعاً من الجبس فينطلق السهم مروراً بـ«بائس» و«لا بأس» و«معقول» وصولاً إلى «خطير!».

تقول مارغريت: «أنت قويّ جداً».

يقول إيدي وهو يستعرض عضلات ساعده: «خطير».

في نهاية الليلة، يقفان على الممشى الخشبي كما في الأفلام، يداهما متشابكتان، يستندان على الدرابزين. هناك على الرمال، كان بائعُ أغراضٍ قديمة قد أشعل ناراً صغيرة من الأعواد ومزّق الأقمشة، وكان يتكوّر أمامها، استعداداً للنوم.

تقول مارغريت فجأة: «لستَ مضطراً إلى أن تطلب مني أن أنتظرك».

يبتلع إيدي ريقه.

«لستُ مضطراً لذلك؟».

تهز رأسها. يبتسم إيدي. بعد أن نجا من سؤال ظلّ عالقاً في حلقه طوال الليل، يشعر وكأن وتراً قد قفز فجأة من قلبه وأحاط بكتفيها، وسحبها إليه، وجعلها له. في هذه اللحظة يحبها أكثر ممّا ظنّ أنه قد يحب أي إنسان.

تسقط قطرة مطر على جبين إيدي. ثم أخرى. يرفع رأسه إلى السحب المتجمّعة.

تقول مارغريت: «إيه، يا خطير!». تبتسم له، ثم تُنكّس رأسها وتطرف عينيها لتطرد منها المياه، ولا يعرف إيدي إن كانت قطرات مطر أم دموع.

تقول: «لا تجعلهم يقتلونك».

الجندي الخارج من الأسر غالباً ما يكون مهتاجاً. ما ضاع منه من أيام وليالٍ، ما قاساه من عذاب وإذلال - كل ذلك يتطلّب انتقاماً قاسياً، تصفية حسابات.

لذا عندما قال مورتون لزملائه، وذراعاه ممتلئتان بالأسلحة المسروقة: «هيا نحرق كل شيء»، حدث اتفاق سريع وإن كان غير منطقي. وإذ انتفخت صدورهم بإحساس السيطرة المستجدّ عليهم، تفرّقوا حاملين أسلحة العدو، سميتي إلى مدخل بئر المنجم، مورتون وإيدي إلى براميل النفط. الكابتن باحثاً عن عربة يركبونها.

صاح: «خمس دقائق، ثم ترجعون إلى هنا! القصف سيبدأ قريباً ويجب أن نغادر قبله. مفهوم؟ خمس دقائق!».

وكان ذلك كل ما يحتاجونه لتدمير ما كان لهم بمثابة الدار لنحو نصف عام. أسقط سميتي القنابل اليدوية في بئر المنجم وركض هارباً. دحرج إيدي ومورتون برميلَين في مجمّع الأكواخ، وفتحاهما، ثمّ أطلقا، واحداً بعد آخر، فوهتَي قاذفتَي اللهب اللتين اقتنصاهما للتوّ وراقبا النار وهي تشتعل في الأكواخ.

صاح مورتون: «احترقوا!».

وصاح إيدي: «احترقوا!».

انفجر بئر المنجم من أسفل. تصاعد دخان أسود من المدخل.

ركض سميتي، وقد أنهى مهمته، باتجاه نقطة التجمّع. ركل مورتون برميل نفطه إلى داخل كوخ وأطلق العنان لحبلٍ من النيران.

نظر إيدي، بشفتين ملويّتين، ثم تحرك في الدرب المؤدّي إلى الكوخ الأخير. كان كبيراً، أشبه بحظيرة، ورفع سلاحه. قال لنفسه: **لقد انتهى كل هذا. انتهى.** كل تلك الأسابيع والشهور في قبضة هؤلاء الأوغاد، هؤلاء الحرّاس الذين لا ينتمون إلى جنس البشر بأسنانهم المعطوبة ووجوههم النحيلة والدبابير الميتة في حسائهم. لم يعرف ما الذي سيحدث لهم بعد ذلك، لكنه لن يكون أسوأ ممّا تحمّلوه.

ضغط إيدي على الزناد. **ووووش.** انطلقت النيران بسرعة. كان الخيزران جافاً، وفي غضون دقيقة كانت جدران الحظيرة تنصهر وسط اللهيب البرتقالي والأصفر. من بعيد، سمع إيدي هدير محرك -لا بدَّ أن الكابتن، أو هكذا تمنّى، قد وجد وسيلة للهرب- ثم، فجأة، من السماء، تعالت أولى أصوات القصف، الأصوات التي ظلّوا يسمعونها طوال الليل. كانت أقرب وأقرب الآن، وأدرك إيدي أن الطيارين سيلاحظون ألسنة اللهب. قد ينقذونهم. قد يرجع إلى الديار! استدار إلى الحظيرة المحترقة و...

ما هذا؟

طرفَ عينَيه.

ما هذا؟

اندفع شيءٌ عبر فتحة الباب. حاول إيدي أن يركّز أنظاره. كانت الحرارة قوية، فحَمَى عينيه بيده الخالية. لم يكن متأكداً، لكنه ظنّ أنه رأى لتوّه هيئةً تركض وسط النيران.

«إيه!»، صرخ إيدي، متقدماً إلى الأمام، خافضاً سلاحه.

«**إيه!**». بدأ سقف الحظيرة يتداعى، ناشراً الشرر واللهب. قفز إيدي إلى الخلف. عيناه دامعتان. ربما كان ظلّاً.

«**إيدي! الآن!**».

كان مورتون على الطريق، يلوّح لإيدي أن يأتي. شعر إيدي بوخز في عينيه. كان يتنفس بصعوبة. أشار وصاح: «أظنني رأيت شخصاً هناك!».

وضع مورتون يداً على أذنه: «ماذا؟».

«شخص... هناك!».

هزّ مورتون رأسه. لم يسمع. استدار إيدي وكان شِبه متأكد أنه رآه ثانية، هناك، يزحف داخل الحظيرة المحترقة، هيئةً بحجم طفل. لقد مرّ أكثر من سنتين منذ رأى إيدي أي شيء إلّا الرجال البالغين، وجعله الشكل المبهَم يفكر فجأة في أولاد عمّه الصغار هناك في الرصيف البحري، وفي «سكك حديد ليتل فولكس المصغَّرة» التي كان مسؤولاً عن تشغيلها وفي القطار الأفعواني والأطفال على الشاطئ ومارغريت وصورتها وكل تلك الأشياء التي كان قد أغلق ذهنه أمامها منذ شهور طويلة.

«**إيه! اخرج**»، صرخ، مستقطاً قاذفة اللهب، مقترباً أكثر وأكثر. «**لن أطلق النا-**».

قبضَت يدٌ على كتفه، شدَّته بقوة إلى الخلف. استدار إيدي، ضمَّ قبضته. كان مورتون، يصرخ: «**إيدي! يجب أن نذهب الآن!**».

هزّ إيدي رأسه. «لا-لا-انتظر-انتظر، أظنني رأيت شخصاً في ال...».

«**لا أحد هناك! الآن**».

كان إيدي يائساً. استدار إلى الحظيرة. شدَّه مورتون ثانية. هذه

المرة التفّت إيدي وأطاح يده بقوة، ضارباً زميله في صدره. سقط مورتون على ركبتيه. كان رأس إيدي يضرب بقوة. وجهه ملويٌّ من الغضب. استدار للنيران ثانيةً، عيناه مغمضتان تقريباً. **هناك. هل هو ذا؟ متدحرجاً خلف الجدار؟ هناك؟**

تقدّم إلى الأمام، مقتنعاً أن كائناً بريئاً يحترق أمام عينيه حتى الموت. ثم انهارت بقيّة السقف بدويٍّ هادر، ناثرةً شرراً مثل غبار كهربائي انهمر من أعلى على رأسه.

في تلك اللحظة، جاشت الحرب بأكملها في صدره مثل عُصارة الصفراء. لقد أعياه الأسر وأعياه القتل، أعياه الدم واللزوجة المتخثّرة على صدغيه، أعياه القصف والحرق وعبثيّة كل هذا. في تلك اللحظة أراد فقط أن ينقذ شيئاً ما، قطعةً من رابوزو، قطعةً من نفسه، أي شيء، خطا مترنّحاً وسط الحطام المشتعل، مقتنعاً على نحو جنونيّ أن ثمة روحاً داخل كلّ ظلٍّ أسود. هدرت الطائرات فوق رأسه ودوت نيران بنادقها مثل قرع الطبول.

تحرّك إيدي كما لو كان مُنوّماً. مرّ ببركة نفط مشتعلة، وعلقت النار بملابسه من الخلف. صعد لهب أصفر إلى ربلة ساقه وفخذه. رفع ذراعيه وصرخ.

«**سأساعدك! اخرج! لن أطلق النا-**».

ألمٌ رهيب شقّ ساق إيدي. صرخ بسبابٍ طويل قويّ ثم تداعى على الأرض. كان الدم ينبجس من أسفل ركبته. هدرت محرّكات طائرة. أضاءت السموات بومضات مزرقّة.

رقد هناك، نازفاً ومشتعلاً، عيناه مغمضتان قبالة الحَرّ اللافح، وللمرة الأولى في حياته، شعر أنه جاهز للموت. ثم جرّه شخصٌ إلى الخلف، مقلِّباً إياه في التراب، ليُخمد النيران، وكان أكثر ذهولاً

وأضعف من أن يقاوم، راح يتقلّب مثل كيس فاصولياء. وسرعان ما أصبح داخل عربة وكان الآخرون حوله، يقولون له أن يصمد، أن يصمد. كان ظهره محروقاً وركبته قد صارت خَدِرةً ويشعر أنه دائخ ومتعَب، متعَب إلى أقصى حدود التعب.

أومأ الكابتن برأسه ببطء، وهو يتذكّر تلك اللحظات الأخيرة.

سأله: «هل تتذكر أي شيء بخصوص طريقة خروجك من هناك؟».

قال إيدي: «ليس بالضبط».

«لقد استغرق الأمر يومَين. كنتَ تدخل الغيبوبة وتخرج منها. لقد فقدتَ الكثير من الدماء».

قال إيدي: «لقد نجحنا».

«صحيييييح!»، مطّ الكابتن الكلمة وأنهاها بتنهيدة. «هذه الرصاصة نالت منك جيداً».

في الحقيقة، لم تخرج الرصاصة من جسده بالكامل قَطّ. شقّت عدة أعصاب وأوتار وتهشمت على إحدى العظام، فكسرتها طولياً. أُجريت لإيدي جراحتان. لم تنجح أي منهما في علاج المشكلة. قال الأطباء إنه سيعيش بعَرْجة، عَرْجة ستزداد سوءاً -غالباً- مع التقدُّم في العمر وتدهور حالة العظام المشوَّهة. قيل له: «هذا أفضل ما يمكن أن نفعله». هل كانت تلك حقيقة؟ من يعرف؟ كل ما عرفه إيدي هو أنه أفاق في وحدة طبية وقد تغيَّرَت حياته إلى الأبد. ولّى زمن الجري. ولّى زمن الرقص. والأسوأ، لسبب ما، ولّت طريقة شعوره بالأشياء، أيضاً، إلى غير رجعة. انسحب. بدت الأشياء سخيفة وبلا جدوى. كانت الحرب قد زحفت داخل إيدي، في ساقه

وفي روحه. تعلَّم العديد من الأشياء كجندي. عاد إلى الديار رجلاً مختلفاً.

قال الكابتن: «هل تعرف أنني أنحدر من ثلاثة أجيال من العسكريين؟».

هزّ إيدي كتفَيه.

«نعم. تعلّمتُ إطلاق النار من مسدس وأنا في السادسة. في الصباح، كان أبي يفتّش سريري، بل كان يرمي عملة على فراشي ليرى إن كانت سترتدّ؛ ليتأكد أن الملاءة مشدودة على آخرها. وعلى طاولة العشاء كنا دائماً نقول «تمام يا سيدي» و«لا يا سيدي».

«قبل دخولي الخدمة، كان كل ما أفعله هو تلقّي الأوامر. ثم فجأة، وجدتُني أعطي الأوامر.

«زمن السِّلم كانت له طبيعته. جاءني الكثير من المجنَّدين العاقلين. لكن الحرب بدأت وتدفّقَ الرجال الجدد -شبّان صغار، مثلك- وكلهم صاروا يستقبلونني بالتحية العسكرية، يريدون مني أن أخبرهم بما يفعلون. كنت أرى الخوف في عيونهم. كانوا يتصرفون وكأنني أعرف شيئاً سرّياً للغاية عن الحرب. ظنوا أن بوسعي حماية حياتهم. أنت أيضاً ظننتَ ذلك، أليس كذلك؟».

واعترف إيدي أنه ظَنّ ذلك.

رفع الكابتن رأسه وراء ظهره وحكّ رقبته. «لكن ذلك لم يكن في مقدرتي بالطبع. كنت آخذ الأوامر أنا أيضاً. لكن إذا لم أكن قادراً على حماية حياتكم، ظننتُ أن بإمكاني على الأقل إبقاءكم معاً. في خضمّ أي حرب كبيرة، تحتاج إلى البحث عن فكرة صغيرة

تؤمن بها. عندما تجدّ فكرة، تتشبَّث بها كما يتشبَّث الجندي بصليبه الصغير وهو يصلي في خندقه الفرديّ.

«بالنسبة إليّ كانت الفكرة الصغيرة هي ما كنت أقوله لكم كل يوم. لن نترك أحداً وراءنا».

أومأ إيدي برأسه. قال: «وذلك كان يعني لنا الكثير».

نظر الكابتن في عينيه مباشرة. قال: «أتمنى ذلك».

أدخل يده في جيب صدريّته، وأخرج سيجارة أخرى، وأشعلها.

سأله إيدي: «لماذا تقول ذلك؟».

نفخ الكابتن الدخان، ثم لوّح بطرف سيجارته باتجاه ساق إيدي.

قال: «لأن هذه كانت منّي. أنا من أطلق الرصاصة عليك».

نظر إيدي إلى ساقه، المدلاة من فوق فرع الشجرة. عاودته ندوب الجراحة. وعاوده الألم. شعرَ بشيء يفور بداخله لم يشعر به حتى قُبيل وفاته، حقّاً، لم يشعر به منذ سنوات عديدة: دفقةٌ رهيبة من الغضب، ورغبةٌ في إيذاء شيء ما. ضاقت عيناه وحدّق في الكابتن، الذي حدّق فيه بخواء، وكأنه يعرف ما سيأتي. ترك السيجارة تسقط من بين أصابعه.

هَمَسَ: «هيا، افعلها».

صرخ إيدي وانقضّ عليه كطاحونة هواء، وسقط الرجلان عن فرع الشجرة وتخبّطا بين الجذوع والأوراق، متصارعَين وساقطَين في الهاوية.

«لماذا؟ يا ابن الحرام! يا ابن الحرام! ليس أنت! لماذا؟». كانا يتصارعان الآن على الأرض الموحلة، امتطى إيدي صدر الكابتن، وراح يكيل اللكمات إلى وجهه. لم ينزف الكابتن. هزَّه إيدي من ياقته وضرب جمجمته في الوحل. لم يطرف الكابتن. بدلاً من ذلك، راح يميل من جنب إلى جنب مع كل لكمة، تاركاً إيدي ينفِّس عن غضبه. أخيراً، بذراع واحدة، قبضَ على إيدي وقلبَه تحته.

قال بهدوء وهو يثبّت صدر إيدي بمرفقه: «لأننا كنا سنفقدك في تلك النار. كنتَ ستموت. ولم يكن أجلُك قد حان».

لهث إيدي بقوة: «أجلي؟».

أكمل الكابتن: «لقد أصابتك رغبة هوسيّة في الدخول إلى هناك. كدتَ تصرع مورتون عندما حاول أن يوقفك. كانت أمامنا دقيقة واحدة، وكنتَ قويّاً جدّاً، اللعنة على قوتك، وما كان بالإمكان مصارعتك».

شعر إيدي بدفقة أخيرة من الغضب وأمسك الكابتن من تلابيبه. سحبه إليه. رأى الأسنان ملطّخة بالأصفر من أثر التبغ.

صرخ إيدي مهتاجاً: «ساقيسيي! حياتي!».

قال الكابتن بهدوء: «لقد أخذتُ ساقك لأنقذ حياتك».

تركه إيدي وسقط منهكاً. شعر بألم في ذراعيه. كان رأسه يدور. لسنوات طويلة ظلَّ مسكوناً بتلك اللحظة الواحدة، ذلك الخطأ الواحد، الذي غيَّر حياته بأكملها.

«لم يكن هناك أحد في ذلك الكوخ. ماذا **تخيّلتُ**؟ لو لم أدخل هناك فحسب...». انخفض صوته إلى هَمْس. «لماذا لم أمت فحسب؟».

بطنها. أطاح بالكابتن ستة أمتار في الهواء وشقَّه إلى أجزاء، كتلة واحدة ملتهبة من العظام والغضاريف ومئة شقفةٍ من اللحم المحروق، بعضها طار فوق الأرض الموحلة وهبط وسط أشجار التين البنغالي.

الدرس الثاني

«آه، يا ربي»، قالها إيدي، وهو يغمض عينَيه ويسقط رأسه إلى الخلف. «آه يا ربّي، آه يا ربّي! لم تكن لدي فكرة يا سيدي. إنه أمر رهيب. أمر فظيع!».

أومأ الكابتن برأسه وأشاح بوجهه. كانت التلال قد عادت إلى حالتها الجرداء، العظام الحيوانية والعربة المعطوبة وبقايا القرية التي يتصاعد منها الدخان. أدرك إيدي أن هذا هو المكان الذي دُفن فيه الكابتن. بلا جنازة. بلا نعش. فقط هيكله العظمي المهشّم والتربة الموحلة.

همس إيدي: «هل ظللتَ تنتظر هنا طوال هذا الزمن؟».

قال الكابتن: «الزمن ليس كما تظن». جلس بالقرب من إيدي. «الموت؟ ليس نهاية كل شيء. نحن نظن ذلك. لكن ما يحدث في الحياة الدنيا ليس إلّا البداية».

بدا إيدي مبلبَلاً.

قال الكابتن: «أعتقد أن الأمر مثلما ورد في الكتاب المقدّس،

قال الكابتن: «لن نترك أحداً وراءنا، تتذكر؟ ما حدث لك - رأيته يحدث من قبل. جندي يصل إلى نقطة معيّنة ثم لا يستطيع المضي قُدماً. أحياناً يحدث ذلك في منتصف الليل. يتقلّب الرجل خارجاً من خيمته بكل بساطة ويبدأ السير، حافي القدمين، نصف عارٍ، وكأنه عائدٌ إلى الديار، وكأنه يعيش عند الناصية.

«أحياناً يحدث ذلك في خضمّ معركة. يُسقط الرجل بندقيته، تصبح عيناه خاويتين. لقد فاض به الكيل وحسب. لا يستطيع القتال أكثر من ذلك. عادة يُردى قتيلاً.

«في حالتك، حدث الأمر وحسب، فقدتَ صوابك أمام النار قبل دقيقة واحدة من مغادرتنا لهذا المكان. لم أستطع أن أتركك تحترق حتى الموت. قلتُ إن ساقاً جريحة سوف تتعافى. سحبناك من هناك، وأوصلك الآخرون إلى وحدة طبية».

راحت أنفاس إيدي تضربه كمطرقة في صدره. كان رأسه ملطّخ بالوحل وأوراق الشجر. استغرق دقيقة لكي يدرك آخر ما قاله الكابتن.

قال إيدي: «الآخرون؟ ماذا تقصد **بالآخرين؟**».

نهض الكابتن. نفضَ غُصيناً عن ساقه.

سأله: «هل رأيتني بعد ذلك؟».

لم يره إيدي. كان قد نُقل بالطائرة إلى المستشفى العسكري، وفي نهاية المطاف، بسبب إعاقته، سُرِّح من الخدمة وأعيد إلى ديارِه في أميركا. سمع، بعدها بشهور، أن الكابتن لم تُكتب له النجاة، لكنه تخيّل أن ذلك حدث في معركة لاحقة مع وحدة أخرى. في النهاية وصله خطابٌ، بداخله قلادة، لكن إيدي نحّاه جانباً، لم

يفتحه. كانت الشهور التي أعقبت الحرب كئيبة ومقبضة، ونسي التفاصيل ولم يعد مهتمّاً بجمعها. بمرور الوقت، غيّر عنوانه.

قال الكابتن: «كما قلتُ لك. تيتانوس؟ حمى صفراء؟ كل هذه التطعيمات؟ لم تكن إلّا إهداراً كبيراً لوقتي».

أومأ برأسه إلى ما وراء كتف إيدي، واستدار إيدي لينظر.

ما رآه، فجأة، لم يعد التلال الجرداء وإنما ليلة هروبهم، القمر الأغبش في السماء، الطائرات المقبلة، الأكواخ المحترقة. كان الكابتن يقود العربة وبداخلها سميتي، ومورتون، وإيدي. كان إيدي ممدّداً على المقعد الخلفي، محروقاً، جريحاً، نصف واعٍ، بينما ربط مورتون رباطاً ضاغطاً فوق ركبته لإيقاف النزيف. كان القصف يقترب. وكانت السماء السوداء تُضاء كل بضع ثوانٍ، وكأن الشمس تومض، فتسطع وتنطفئ. انحرفت العربة عندما وصلَت إلى قمة أحد التلال، ثم توقفت. كانت ثمة بوابة، حاجزٌ مرتَجل من خشب وأسلاك، لكن لأن الأرض منحدرة انحداراً شديداً على الجانبين، لم يسعهم الالتفاف حولها. قبض الكابتن على بندقية وقفز خارجاً. أطلق النار على القِفل ودفع البوابة ليفتحها. أشار لمورتون أن يتولّى القيادة، ثم أشار بإصبعَيه إلى عينَيه، قاصداً أنه سيتفقّد الطريق أمامهم، الذي كان يتعرّج وسط دغل من الأشجار. ركض، بأقصى ما يمكنه على قدميه الحافيتين، خمسين متراً بعد انعطافة الطريق.

كان الممرّ خالياً. لوّح لرجاله. اقتربت طائرة فوق الرؤوس ورفع عينَيه ليرى من أي جانب هي. في تلك اللحظة، بينما كان ينظر إلى السماء، سمع تلك الطقّة الصغيرة تحت قدمه اليمنى.

انفجر اللغم الأرضي على الفور، مثل لهيب تجشّأته الأرض من

موضوع آدم وحواء؟ أول ليلة لآدم على الأرض؟ عندما رقدَ لينام؟ يظنّ أن كل شيء انتهى، صَحْ؟ لا يعرف ما هو النوم. عيناه تغمضان ويظن أنه يغادر العالم، صَحْ؟

«لكنه لا يغادره. يستيقظ الصباح التالي ويجد أمامه عالماً جديداً طازجاً يتعامل معه، لكن لديه شيئاً آخر أيضاً. لديه أَمْسُه».

ابتسم الكابتن ابتسامة عريضة. «الطريقة التي ترى بها الأمس هي ما نفوز به هنا أيها الجندي. هذه هي الجنة. أن تفهم معنى أيامك الماضية».

أخرج علبة سجائره البلاستيكية ونقر عليها بإصبعه. «هل تفهمني؟ لم أكن ماهراً في التدريس قَطّ».

تفحَّص إيدي الكابتن. لطالما نظر إليه باعتباره أكبر منه سنّاً بكثير. لكن الآن، مع غبار الفحم المفروك على وجهه، لاحظ إيدي الخطوط الخفيفة على جلده والشعر الكامل الداكن فوق رأسه. لا بُدّ أنه في الثلاثينيات من عمره لا أكثر.

قال إيدي: «ظللتَ هنا منذ وفاتك، لكن هذا ضِعف الزمن الذي عشتَه».

أومأ الكابتن برأسه.

«ظللتُ أنتظرك».

نكّس إيدي رأسه.

«هذا ما قاله الرجل الأزرق».

«طيّب، هو أيضاً كان ينتظرك. لقد كنا جزءاً من حياتك، جزءاً من سبب حياتك وطريقة حياتك، جزءاً من القصة التي عليك أن تعرفها، لكنه أخبرك أنه تجاوز هذا المكان الآن، وبعد قليل

سأتجاوزه أنا أيضاً. لذا أصغِ إليّ. لأن هذا ما يجب أن تعرفه منّي».

شعر إيدي بظهره يستقيم.

قال الكابتن: «التضحية. أنت قمت بتضحية. أنا قمت بتضحية. كلنا نقوم بتضحيات. لكنك كنت غاضباً من تضحيتك. ظللتَ تفكر فيما فقدتَه.

«لم تفهم الأمر. التضحية جزء من الحياة. يُفترض بها أن تكون كذلك. إنها ليست شيئاً ننده عليه. إنها شيءٌ نطمح إليه. تضحيات صغيرة. تضحيات كبيرة. الأم تعمل لكي يتمكن ابنها من الذهاب إلى المدرسة. الابنة تغادر منزلها لترعى أباها المريض.

«الرجلُ يذهب إلى الحرب...».

توقف للحظة وتطلّع إلى السماء الرمادية الغائمة.

«رابوزو لم يمت هباءً، تعرف. لقد ضحّى من أجل بلده، وأُسرته عرفتْ ذلك، وشقيقه الصغير واصل طريقه ليصبح جنديّاً صالحاً ورجلاً عظيماً لأنه استمدّ الإلهام من أخيه.

«أنا أيضاً لم أمت هباءً. تلك الليلة، كان يمكن أن نمرَّ جميعاً بالسيارة فوق ذلك اللغم الأرضي. كان ذلك ليقتلنا نحن الأربعة».

هزّ إيدي رأسه. «لكن أنتَ...». خَفَض صوته. «أنتَ فقدتَ حياتك».

طرقع الكابتن بلسانه. «هذه هي المسألة. أحياناً عندما تضحّي بشيء ثمين، لا تفقده عن حقّ. أنت فقط تمرّره إلى شخص آخر».

مضى الكابتن إلى الخوذة، والبندقية، والقلادة التعريفية، القبر الرمزي، الذي لا يزال قائماً في الأرض. وضع الخوذة والقلادة

تحت إحدى ذراعيه، ثم نزعَ البندقية من الطين وألقاها مثل رمح. لم تهبط أبداً. فقط ظلّت تحلّق في السماء حتى اختفت. استدار الكابتن.

قال: «لقد أطلقتُ عليك رصاصة، طيّب، وأنت فقدتَ شيئاً، لكنك كسبتَ شيئاً أيضاً. أنت فقط لا تعرف بعد. أنا أيضاً كسبتُ شيئاً».

«ماذا؟».

«حافظتُ على عهدي. لم أترك أحداً ورائي».

مدّ كفه إلى الأمام.

«هل تسامحني على ما حدث لساقك؟».

فكّر إيدي للحظة. فكّر في المرارة التي نجمت عن جرحه، في غضبه تجاه كل ما ضحّى به. ثم فكّر في ما ضحّى به الكابتن وشعر بالخجل. مدّ يده. شدّ الكابتن عليها بقوة.

«هذا ما كنت أنتظره».

فجأة، انحلّت الفروع الأرضية عن شجرة التين البنغالي وذابت بهسيس إلى داخل الأرض. ثم نبتت فروعٌ جديدة فتيّة في شبكة راحت تتسع، مغطاة بأوراق ناعمة متينة وجِرابات ريّانة ممتلئة بثمار التين. اكتفى الكابتن بنظرة واحدة إلى أعلى، وكأنه كان يتوقع ذلك. ثم، باستخدام كفّيه المفتوحتَين، مسح بقية الرماد عن وجهه.

قال إيدي: «كابتن؟».

«نعم؟».

«لماذا هنا؟ تستطيع أن تختار أيّ مكان للانتظار، صَحّ؟ هذا ما قاله الرجل الأزرق. إذاً، لماذا هذا المكان».

ابتسم الكابتن. «لأنني متّ في المعركة. قُتلت في تلك التلال.

غادرت عالماً لم أعرف عنه تقريباً إلّا الحرب - كلامُ الحرب، خطط الحرب، أُسرة الحرب.

«كانت أمنيتي أن أرى كيف بدا العالم من دون حرب. قبل أن نبدأ نقتل بعضنا بعضاً».

جال إيدي ببصره. «لكن هذه حرب».

قال الكابتن: «بالنسبة إليك. لكن أعيننا مختلفة. ما تراه ليس هو ما أراه».

رفع يداً فتحوّل المنظر الذي ينبعث منه الدخان. ذاب الحطام، نمَت أشجار وانتشرت، تحوّلت الأرض من الطين إلى عشب أخضر ناضر. انفتحت السحابات المعتمة مثل سَحّاب، كاشفة عن سماء ياقوتيّة. سقط سديم أبيض رقيق فوق قمم الأشجار، وظهرت شمس بلون الخوخ متألّقة فوق الأفق، منعكسة في البحار المتلألئة التي أصبحت الآن تحيط بالجزيرة. كان جمالاً صافياً، لم يُفسده أحد، لم يمسّه أحد.

تطلّع إيدي إلى قائده القديم، الذي صار وجهه صافياً فجأة، وزيّه العسكري نظيفاً مكويّاً.

قال الكابتن، وهو يرفع ذراعيه: «هذا هو ما أراه».

وقف للحظة، مستمتعاً بالمنظر.

«بالمناسبة، أنا لم أعد أدخّن. كان ذلك في عينيك فقط». أطلق ضحكة مكتومة. «لِمَ عساي أدخّن في الجنة؟».

شرع يمضي في طريقه.

صاح إيدي: «انتظر. يجب أن أعرف شيئاً. مَوْتي. في الملاهي. هل أنقذتُ تلك الفتاة؟ لقد شعرتُ بيديها، لكنني لا أتذكر-».

استدار الكابتن فابتلع إيدي كلماته، محرجاً من مجرد السؤال، بالنظر إلى الميتة الرهيبة التي لاقاها الكابتن.

دمدم قائلاً: «فقط أريد أن أعرف، هذا كل شيء».

حكّ الكابتن خلف أذنه. نظر إلى إيدي نظرة تعاطف. «لا أستطيع أن أخبرك أيها الجندي».

نكّس إيدي رأسه.

«لكن أحدهم سيخبرك».

رمى إليه الخوذة والقلادة قائلاً: «هذه تخصّك».

نظر إيدي إلى أسفل. داخل سَدِيلة الخوذة كانت صورةٌ مجعّدة لامرأة جَعَلت قلبه ينفطرُ من جديد. عندما رفع رأسه، كان الكابتن قد رحل.

الاثنين، 7:30 صباحاً

الصباح التالي للحادثة، جاء دومينغيز إلى الورشة مبكّراً، متجاوزاً روتينه اليوميّ في شراء قطعة من خبز البيغل ومشروب غازيّ من أجل الإفطار. كانت الحديقة مغلقة، لكنه جاء على أي حال، وفتح الماء في الحوض. وضع يديه تحت الماء المتدفّق، مفكّراً أنه سينظّف بعض أجزاء الألعاب. ثم أغلق الماء وتخلّى عن الفكرة. بدا أن الهدوء تضاعف عن الدقيقة السابقة.

«كيف الأحوال؟».

كان ويلي عند باب الورشة. يرتدي قميصاً أخضر بلا أكمام وسروالاً واسعاً من الجينز. كان يمسك صحيفة. وكان العنوان الرئيس: «مأساة في حديقة ملاهٍ».

قال دومينغيز: «وجدتُ صعوبة في النوم».

ارتمى ويلي على مقعد معدني بلا ظهر. «نعم. أنا أيضاً».

استدار في نصف دائرة على المقعد، ناظراً بخواء إلى الصحيفة. «متى سيفتحونها ثانية في رأيك؟».

هزّ دومينغيز كتفَيه. «اسأل الشرطة».

جلسا صامتَين لبرهة، وبين دقيقة وأخرى يغيّر أحدهما وضعية جسده، وكأنما بالتتابع. تنهّد دومينغيز. وضع ويلي يده في جيب قميصه، باحثاً عن قطعة علكة. كان يوم الاثنين. وكانا في الصباح. وكانا ينتظران صديقهما العجوز لكي يأتي ويبدأ العمل في الورشة.

ثالث شخص يقابله إيدي في الجنة

ريحٌ مباغتة رفعت إيدي، فدار مثل ساعة جَيْب معلَّقة بسلسلة. غمرته عاصفة من الدخان، ابتلعت جسده في مَسِيل من الألوان. بدا أن السماء تَطبق عليه، حتى شعر بها تلمس جلده مثل بطانيّة تُحكم على جسدٍ نائم. ثم انطلقَت بعيداً وانفجرت إلى فتات من أحجار اليَشم. ظهرت النجوم، ملايين النجوم، مثل نِثار مِلحٍ على القبّة السماوية المخضرّة.

طرف إيدي عينَيه. كان في الجبال الآن، إنما جبالٌ هي الأكثر روعة، تمتدّ إلى ما لا نهاية، بقممٍ تغطّيها الثلوج، وصخورٍ مثلّمة، وجروفٍ بنفسجية شديدة الانحدار. في سهل منبسط بين قمّتين كانت ثمة بحيرة سوداء كبيرة. كان قمر ينعكس بسطوع على سطحها.

أسفل الجرف، لاحظ إيدي ضوءاً ملوناً يومض، يتغيّر على نحو إيقاعي، كل بضع ثوانٍ. تقدَّم في ذلك الاتجاه - وأدرك أنه غائصٌ في الثلج حتى كاحليه. رفع قدمه ونفضها بقوة. تحررت منها نِدَف الثلج، متلألئةً بلمعة ذهبيّة. عندما لمسها، لم تكن لا باردةً ولا رطبةً.

فكّر إيدي: **أين أنا الآن؟** مرة أخرى، استعرَضَ أوصاله، ضاغطاً على كتفيه، على صدره، على بطنه. ظلّت عضلات ذراعيه مشدودة، لكنّ قِسمَه الأوسط صار أكثر رخاوة، أكثر ترهّلاً. تردّد، ثم قبضَ على ركبته اليسرى. نَبَضَت من الألم فأجفل إيدي. كان قد راوده أمل أن يختفي الجرح بعد مغادرة الكابتن. عوضاً عن ذلك، بدا أنه يتحول إلى الرجل الذي كانه على الأرض، ندوبٌ وشحومٌ وكل شيء. لماذا تجعلك الجنة تعيش تحلُّلك من جديد.

مضى متتبعاً الأضواء المتلألئة في الجرف الضيّق. هذا المنظر، القاسي والصامت، كان يحبس الأنفاس، كان أشبه بالصورة التي تخيَّلها للجنة. تساءل، للحظة، إن كان سيقابل المزيد من الأشخاص. التفّ وسط الثلج حول نتوء صخريّ باتجاه المنبَسط الواسع الذي تنبعث منه الأنوار. طَرَف عينَيه مجدداً – هذه المرة غيرَ مصدِّق.

هناك، في الحقل الثلجي، قائماً بمفرده، كان مبنىً يشبه عربات الشحن في قطار البضائع، جدرانه من الصلب المقاوم للصدأ وسقفه أسطوانيٌّ أحمر. فوقه لافتة كُتبت عليها بالمصابيح الوامضة كلمة: «أكل».

مطعم.

كان إيدي قد قضى عدة ساعات في أماكن كهذا. كلها تبدو متشابهة – كنباتٌ متواجهة عالية الظهر، طاولاتٌ لامعة، صفٌّ من النوافذ الصغيرة على الواجهة، ما يجعل الزبائن، من الخارج، يبدون مثل ركّاب في عربة قطار. تَبَيَّن هيئاتٍ عبر النوافذ، أناسٌ يتكلّمون ويحرّكون أيديهم. صعدَ الدرج المغطّى بالثلج إلى الباب الزجاجي ذي المصراعين. اختلس النظر إلى الداخل.

كان زوجان مسنّان يجلسان إلى يمينه، يتناولان فطيرةً؛ لم

يلاحظاه. وكان زبائن آخرون يجلسون في مقاعد دوّارة عند النضُد الرخاميّ أو داخل الكبائن وقد علَّقوا معاطفهم على خطاطيف. بدا أنهم من عَقدٍ آخر: رأى إيدي امرأة ترتدي فستاناً عالي الرقبة يعود إلى الثلاثينيات وشاباً طويل الشعر على ذراعه وشمُ علامة السلام التي شاعت في الستينيات. بدا أن الكثير من الزبائن قد أصيبوا بجروح. كان ثمّة رجل أسود في قميص عمل بلا ذراع. وفتاة مراهقة بجُرح غائر في وجهها. لم يرفع أيٌّ منهم رأسه عندما دقّ إيدي على النافذة. رأى طبّاخين يرتدون قبّعات ورقيّة بيضاء، وصحوناً من طعام يتصاعد منه البخار على المنضدة بانتظار التقديم – طعام بألوان نضرة: صلصات حمراء داكنة، كريمة زبدة صفراء. تحركت عيناه إلى الكابينة الأخيرة في الزاوية اليمنى. تجمّد بلا حراك.

ما رآه كان شيئاً لم يكن ممكناً أن يراه.

«لا»، سمع نفسه يهمس. استدار عن الباب. سحب أنفاساً عميقة. دقّ قلبه بعنف. استدار ونظر ثانية، ثم راح يضرب بقوة على زجاج النافذة.

كان إيدي يصرخ: «لا! لا! لا!». ظلَّ يضرب حتى تأكد أن الزجاج لن ينكسر. «لا!». ظلَّ يصرخ حتى تشكَّلت في حلقِه أخيراً تلك الكلمة التي أرادها، الكلمة التي لم ينطقها منذ عقود. عندها صرخ بالكلمة – صرخ بها عالياً حتى أن رأسه صار ينبض. لكنّ هذا الشخص داخل الكابينة ظلَّ محنيّاً، غافلاً، إحدى يديه مستندة على الطاولة، والأخرى تمسك بسيجار، ولم يرفع رأسه قَطّ، لا يهمّ كم مرة صرخ إيدي بالكلمة، منتحباً، مرة بعد مرة:

«بابا! بابا! بابا!».

اليوم عيد ميلاد إيدي

في الردهة المعتمة والمعقَّمة لمستشفى قدامى المحاربين، تفتح والدة إيدي علبة مخبوزات بيضاء وتفتّش فيها عن شموع للكعكة، ترتّبها، 12 شمعة في هذا الجنب، و12 شمعة في الجنب الآخر. بقيّتهم -والد إيدي، وجو، ومارغريت، وميكي شيا- يقفون حولها، يراقبون.

تهمس: «هل مع أحدكم عيدان ثقاب؟».

يُربّتون على جيوبهم. يُخرج ميكي علبةً من سترته، تَسقط منه سيجارتان مفرَدَتان على الأرض. تُشعل والدة إيدي الشموع. تتناهى رنّة مصعد من البهو. تَخرج منه نقّالة على عجلات.

تقول: «طيّب إذاً، هيا نبدأ».

يتذبذب اللهب الصغير وهم يتحركون معاً. تدخل المجموعة غرفة إيدي وهي تغنّي بنعومة: «سنة حلوة يا جميل، سنة حلوة يا...».

يستيقظ الجندي على السرير المجاور وهو يصرخ: «ما هذا بحق الجحيم؟». يُدرك أين هو فيعود ليسقط على الفراش، محرَجاً. الأغنية، بعد أن قُوطعت، تبدو ثقيلة جداً تستعصي على الرفع مجدداً، وحدُه صوت والدة إيدي، المرتعش في وحدته، يتمكن من المتابعة.

«سنة حلوة يا إيدييي...»، ثم سريعاً: «سنحلويجميل».

ينهض إيدي ويرفع جسده ليستند على الوسادة. حروفُه ملفوفةٌ بضمادات. ساقه في جبيرة طويلة. ثمة زوجان من العكازات بجوار السرير. ينظر إلى تلك الوجوه فتجتاحه رغبة في الفرار.

يتنحنح جو. يقول: «إيه، تبدو في حالة جيدة». وسرعان ما يتفق معه الآخرون. حالة جيدة. نعم. جيدة جدّاً.

تهمس مارغريت: «ماما أحضرت لك كعكة».

تتقدم والدة إيدي، وكأن دورها قد حان. تُقدّم له العُلبة الكرتون.

يدمدم إيدي: «شكراً يا ماما».

تُجيل بصرها. «الآن، أين نضعها؟».

يجذب ميكي كرسيّاً. يُنظّف جو سطح طاولة صغيرة. تنقل مارغريت عكازَي إيدي. وحدُه والده لا يتحرك لغرضِ التحرُّك. يقف مستنداً على الحائط الخلفي، وسترةٌ معلقةٌ على ذراعه، يحدّق في ساق إيدي، المكسوّة بالجبس من الفخذ إلى الكاحل.

تلتقي عينا إيدي بعينيه. يُنكّس والده نظرته ويمرّر يده على عتبة النافذة. يشدّ إيدي كلَّ عضلة في جسده ويحاول، بإرادته وحدها، أن يُجبر الدموع على العودة إلى مدامعها.

كل الآباء يُوقعون الضرر بأبنائهم. إنه أمرٌ لا يمكن تجنُّبه. الشباب، مثل الزجاج النقيّ، يمتصون البصمات التي تنطبع عليهم. بعض الآباء يُلطِّخون، وآخرون يَشرخون، وقلّة منهم يُهشّمون طفولةَ أطفالٍ بالكامل ويُصيِّرونها شظايا صغيرةً مستّنةً، فلا يعود إصلاحها ممكناً.

الضرر الذي أوقعه والد إيدي كان، في البداية، ضرر التجاهل. عندما كان إيدي رضيعاً، لم يحمله الرجلُ إلّا قليلاً، وعندما صار طفلاً، كان كثيراً ما يشدّه من ذراعه، لا حبّاً وإنما ضيقاً وتأفُّفاً. كانت والدة إيدي هي من تُسبغ الحنان، أما والده فكان هناك من أجل الانضباط.

في أيام السبت، كان والد إيدي يأخذه إلى الملاهي. يغادر إيدي الشقة وهو يتخيّل لعبة الخيول الدوّارة وكُرات غَزْل البنات، لكن بعد ساعة أو نحو ذلك، كان والده يجد وجهاً مألوفاً ويقول: «راقب هذا الصبي لأجلي، مُمكن؟». وإلى أن يرجع والده آخر النهار، سكران غالباً، كان إيدي يَبقى في رعاية لاعب أكروبات أو مروِّض حيوانات.

مع ذلك، لساعاتٍ لا تُحصى من صباه في الملاهي، كان إيدي يتوق إلى انتباه والده، جالساً على درابزين أو مُقرفِصاً في سرواله القصير فوق صناديق الأدوات في ورشة الإصلاح. كان يقول:

«أستطيع أن أساعد، أستطيع أن أساعد»، لكن المهمة الواحدة التي تُوكل إليه هي الزحف تحت «الساقية العملاقة» في الصباح، قبل أن تفتح الحديقة أبوابها، لجمع العملات التي سقطت من جيوب الزبائن في الليلة الماضية.

على الأقل لأربعة مساءات في الأسبوع، كان والده يلعب الورق. تزدحم الطاولة بالنقود، والزجاجات، والسجائر، والقواعد. كانت قاعدة إيدي بسيطة: لا تُزعجني. ذات مرة حاول أن يقف إلى جوار والده وينظر في أوراقه، لكن الرجل أطفأ سيجاره وانفجر هادراً مثل الرعد، صافعاً وجه إيدي بظهر يده قائلاً: «ابعد أنفاسَك عنّي». انفجر إيدي في البكاء وسحبَته أمّه إلى خصرها، وهي ترمي زوجها بنظرة لاهبة. لم يقترب إيدي منه إلى ذلك الحدّ بعد ذلك.

في ليالٍ أخرى، عندما يكون الورق قد ساء والزجاجات قد أُفرغت وأمه قد نامت، كان والده يدخل بعاصفته إلى غرفة نوم إيدي وجو. يفتّش في الألعاب المتواضعة، يرميها على الحائط. ثم يُجبر ولديه على الركود على بطنيهما على المرتبة بينما يخلع حزامه ويجلِد مؤخرتيهما، وهو يصرخ قائلاً إنهم يضيّعون نقوده على التفاهات. كان إيدي يُصلّي أن تستيقظ والدته، لكنْ حتى المرات التي استيقَظت فيها، حذَّرها والده: «ابقي بعيداً عن هذا». كانت رؤيتُها في الردهة، تتشبّث بردائها، عاجزةً مثله تماماً، تُزيد عليه همَّه.

هكذا، كانت اليدُ على زجاجِ طفولة إيدي قاسيةً وخشنةً وحمراء من الغضب، ومضى هو في سنوات صباه ملطوماً، ومجلوداً، ومضروباً. هذا هو الضرر الثاني الذي أحاق به، بعد ضررِ التجاهل. ضررُ العنف. وقد وصل الأمر إلى أن إيدي كان يسمَع وَقْعَ الأقدام في الصالة فيعرفُ مقدار الضربَ الذي سينالُه.

عَبر كل هذا، وعلى الرغم من كل هذا، كان إيدي يحب والده بينه وبين نفسه حدّ العبادة، لأن الأبناء يحبّون آباءهم حدّ العبادة حتى مع أكثر السلوكيات سوءاً. على هذا النحو يتعلّمون الإخلاص. فقبل أن يُكرّس الصبي نفسه للربّ أو لامرأة، يُكرّس نفسه لوالده، حتى وإن على نحو أحمق، حتى وإن على نحو يستعصي على التفسير.

ومن حين إلى آخر، وكأنما لتغذية أوهى جمرات النار، كان والد إيدي يَترك كسرةً من الفَخّر تكسر قشرة لا مُبالاته. في ملعب البيسبول بجوار باحة المدرسة في شارع 14، كان والد إيدي يقف وراء السور، يشاهد إيدي وهو يلعب. إذا ضرب إيدي الكرة خارج الملعب، كان والده يومئ برأسه، وعندما يفعل ذلك، يقفز إيدي قفزاً من قاعدة إلى أخرى. في أحيان أخرى، عندما كان إيدي يرجع إلى البيت من شِجار أزِقّة، كان والده يُلاحظ قبضته المكشوطة أو شفته المشقوقة. كان يسأله: «ماذا حدث للولد الآخر؟». وكان إيدي يقول إنه نال منه. هذا أيضاً كان يلقى استحسان الأب. عندما هاجم إيدي الصِّبْيَةَ الذين كانوا يضايقون شقيقه -«البلطجيّة» كما أسمتهم أمه- شعر جو بالخجل واختبأ في غرفته، لكن والد إيدي قال: «دعك منه. أنت الفتى القوي. كُن حارساً لأخيك. لا تدع أحداً يلمسه».

عندما وصل إيدي إلى المرحلة الإعدادية، راح يُقلّد النظام الصيفي الخاص بوالده، فيستيقظ قبل الشمس، ويعمل في الحديقة حتى حلول الليل. في البداية، كان يُشغّل الألعاب الأبسط، يُناور روافع الكوابح، يُوقف عربات القطار بنعومة. في السنوات اللاحقة، صار يعمل في ورشة الإصلاح. كان والد إيدي يختبره في مشكلات صيانة مختلفة. يعطيه عجلةَ قيادة مكسورة ويقول: «أصلحها». يشير

إلى سلسلة عالقة ويقول: «أصلحها». يحمل إليه واقي صدمات صدئ وورقة صَنْفَرة ويقول: «أصلحه». وفي كل مرة، لدى إتمامه مهمته، يعيد إيدي الغرض إلى والده ويقول: «تمَّ الإصلاح».

في الليل كانوا يجتمعون على طاولة العشاء، والدته مكتنزة ومتعرّقة، تطبخ إلى جوار الموقد، وشقيقه، جو، يثرثر، وشعره وجلده يفوحان برائحة العرق. كان جو قد أصبح سبّاحاً ماهراً، وكان عمله الصيفي في مسبح روبي بير. يتكلّم جو عن كل الناس الذين رآهم هناك، أزياء سباحتهم، نقودهم. لكن ذلك لا يُعجب والد إيدي. ذات مرة سمعه إيدي يتكلم إلى والدته عن جو. قال: «ذلك الولد لا يقوى على شيء إلّا الماء».

مع ذلك، ظلَّ إيدي يحسد شقيقه على مظهره في الأمسيات، ببشرته المسمرّة النظيفة. كانت أظافر إيدي، مثل أظافر والده، ملطّخة بالشحم، وعلى طاولة العشاء كان إيدي يحكُّ خَتْرات الشحم بظُفر إبهامه، محاولاً التخلُّص من الوسخ. وذات مرة انتبه إلى أن والده يراقبه مبتسماً.

قال: «هذا يُظهر أنك عملت جيداً في يومك»، ورفع أظافره المتسخة هو نفسه، قبل أن يلفّها حول كوب من البيرة.

في تلك المرحلة -وقد أصبح إيدي مراهقاً يافعاً- صار يكتفي بإيماءة من رأسه. دون أن يعرف، كان قد بدأ طقس تبادل الإشارات مع والده، كما في سيمافور القطارات، مضحّياً بالكلمات والعواطف الملموسة. كل شيء يتم داخليّاً. فقط يُفترض بك أن تعرف ذلك، هذا كل شيء. إنكار العواطف. لقد وقع الضرر.

ثم، ذات ليلة، توقَّف الحديث تماماً. حدث ذلك بعد الحرب،

بعد أن سُرِّح إيدي من المستشفى وأُزيلت الجبيرة عن ساقه وعاد إلى شقة الأُسرة في شارع بيتشوود. كان والده يشرب في الحانة القريبة وعاد إلى البيت متأخّراً ليجد إيدي نائماً على الكنبة. كانت ظُلمة القتال قد غيَّرت إيدي. كان يبقى في البيت. نادراً ما يتكلم، حتى مع مارغريت. كان يقضي الساعات ينظر من نافذة المطبخ، يتابع لعبة الخيول الدوّارة، يحكُّ ركبته المصابة. كانت أمه تهمس قائلة إنه «يحتاج مزيداً من الوقت فحسب»، لكن غضب والده كان يتزايد يوماً بعد يوم. لم يفهم الاكتئاب. بالنسبة إليه كان ضعفاً.

الآن، كان يصيح فيه، كلماته متداخلة: «انهض وابحث عن عمل».

تقلَّبَ إيدي. صرخ والده ثانية:

«انهض... وابحث عن عمل!».

كان الأب يترنّح، لكنه اتجه إلى إيدي ودفعه. «انهض وابحث عن عمل! انهض وابحث عن عمل! انهض... وابحث... عن عمل!».

نهض إيدي على مرفقيه.

«انهض وابحث عن عمل! انهض واب...».

«كفى!»، صرخ إيدي، وهو يهبُّ على قدمَيه، متجاهلاً دفقة الألم في ركبته. رمق والده بنظرة نارية، وجهه لا يبعد عنه إلّا بوصات قليلة. اشتمَّ رائحة الكحول والسجائر القبيحة في أنفاسه.

نظر الأب إلى ساق إيدي. انخفض صوته إلى دمدمة: «هل ترى؟ أنت... لست... مصاباً... للدرجة!».

مال إلى الوراء ليوجِّه له لكمةً، لكن إيدي تحرك غريزيّاً وقبضَ على ذراع والده في الهواء. اتّسعت عينا الأب. كانت تلك المرة

الأولى التي يدافع فيها إيدي عن نفسه، المرة الأولى التي يفعل فيها أي شيء بخلاف الاستسلام للضرب وكأنه يستحقه. نظر والده إلى قبضته المضمومة، العالقة في منتصف الطريق، ثم انتفخ منخاراه وصرّت أسنانه وتعثّر راجعاً إلى الوراء ونفضَ ذراعه ليحرّره. حدّق في إيدي بعينَي رجلٍ يراقب قطاراً ينطلق من محطته.

لم يتكلم مع ابنه ثانية قَطّ.

كانت تلك البصمة الأخيرة على زجاج إيدي. الصمت. بصمةٌ هَيمَنَت على ما تبقى لهما من سنوات. ظلَّ والده صامتاً عندما انتقل إيدي إلى شقته الخاصة، صامتاً عندما عمل سائقاً على تاكسي، صامتاً في زفاف إيدي، صامتاً عندما كان إيدي يأتي لزيارة والدته. ظلّت هي تسترحم وتبكي وتتوسل إلى زوجها لكي يغيّر موقفه، لكي يدع الأمور تسير، لكن والد إيدي لم يكن يردّ عليها، عَبْر أسنان مطبقة، إلّا بما يردّ به على غيرها: «هذا الولد رَفَعَ يده عليّ». وهكذا، ينتهي الحوار.

كل الآباء يوقعون الضرر بأبنائهم. كانت تلك حياتهما معاً. تجاهلٌ. عنفٌ. صمتٌ. والآن، في هذا المكان الذي يقع فيما وراء الموت، يضرب إيدي على جدارٍ من الحديد المقاوم للصدأ، وينهار على أرضٍ ثلجية، وقد وَخَزَه مجدَّداً إنكارُ رجلٍ لا يزال يتوق إلى حبه ويبتغيه، على نحو غير مفهوم تقريباً، رجل يتجاهله، حتى في الجنة. والده. لقد وقع الضرر.

«لا تغضب»، قال صوت أنثوي. «إنه لا يستطيع سماعك».

نَفَضَ إيدي رأسه إلى أعلى. كانت امرأةٌ عجوز تقف أمامه وسط الثلج. وجهها ضامر، بخدَّين متهدّلَين، وطلاءٍ شفاهٍ ورديّ،

وشعرٍ أبيض مشدودٍ بقوة إلى الخلف، شعر نحيل يكشف في بعض أجزائه فروة الرأس الزهريّة من تحته. تضع نظّارة بإطار من السلك على عينَين زرقاوين ضيّقتَين.

لم يتذكرها إيدي. كانت ملابسها تنتمي إلى زمن سابق عليه، فستانٌ مصنوع من الحرير والشيفون، بصدريّة تُشبه المريلة مُرصّعة بحبّات خرز بيضاء وفي أعلاها قوسٌ من القطيفة تحت رقبتها مباشرة. تنُّورتها لها إبزيمٌ من الصدف وثمة مشابك وخطاطيف على الجانب. وقفَتْ وقفةً أنيقة، تُمسك بمظلّة خفيفة بكلتا يديها. وخمّن إيدي أنها امرأة ثرية.

«لم أكن ثرية دوماً»، قالتها بابتسامة عريضة وكأنها سمعته. «لقد نشأتُ نشأةً تشبهك كثيراً، في الضواحي الخلفية للمدينة، وأُجبرتُ على ترك المدرسة وأنا في الرابعة عشرة. كنتُ فتاة عاملة. وكذا شقيقاتي. كنا نعطي كل سِنتٍ نكسبه إلى أسرتنا-».

قاطعها إيدي. لم يكن راغباً في قصة أخرى. سألها: «لماذا لا يستطيع أبي سماعي؟».

ابتسمَت. «لأن روحه -السليمة المعافاة- هي جزء من أبديّتي. لكنه ليس هنا حقّاً. أما أنت فهنا».

«لماذا يجب أن يكون أبي سليماً معافىً لأجلك؟».

تمهَّلَت، ثم قالت: «تعال».

فجأة صارا أسفل جبل. ضوء المطعم الآن مجرد هباءة، مثل نجمة سقطت في أخدود.

قالت المرأة العجوز: «جميل، أليس كذلك؟». تابع إيدي عينيها. كان فيها شيءٌ ما، وكأنه رأى صورة لها في مكان ما.

«هل أنتِ... شخصي الثالث؟».

قالت: «أنا هو».

حكّ إيدي رأسه. **من هذه المرأة؟** على الأقل مع الرجل الأزرق، على الأقل مع الكابتن، كانت لديه ذكرى ما عن مكانهما في حياته. لماذا شخصٌ غريبٌ؟ لماذا الآن؟ لقد تمنّى إيدي ذات مرة أن يكون الموتُ لمَّ شملٍ لمن رحلوا قبله. كان قد حضر الكثير من الجنازات، يُلمِّع حذاءه الأسود الأنيق، يبحث عن قبعته، يقف في مقبرة وفي صدره السؤال الباعث على اليأس نفسه: **لماذا رحلوا وبقيتُ أنا هنا؟** والدته. شقيقه. أعمامه وأخواله، عمّاته وخالاته. صديقه نويل. مارغريت. كان الكاهن يقول: «ذات يوم، سنكون كلنا معاً في مملكة السماء».

فأين هم إذاً، إذا كانت هذه هي الجنة، مملكة السماء؟ تفحَّص إيدي هذه العجوز الغريبة. شعر بوحدة لم يشعر بها من قبل.

هَمَسَ قائلاً: «هل يمكن أن أرى الأرض؟».

هزّت رأسها نافية.

«هل يمكن أن أتكلم إلى الرب؟».

«تستطيع دائماً أن تتكلم مع الرب».

تردَّد قبل أن يطرح السؤال التالي.

«هل يمكن أن أرجع؟».

زرَّت عينيها. «ترجع؟».

قال إيدي: «نعم، أرجع. إلى حياتي. إلى ذلك اليوم الأخير. هل هناك ما يمكن أن أفعله؟ هل يمكن أن أتعهّد بأن أكون صالحاً؟ هل يمكن أن أتعهّد بالذهاب إلى الكنيسة طوال الوقت؟ أي شيء؟».

بَدَت متسلِّيةً: «لماذا؟».

كرَّر إيدي: «لماذا؟». ضربَ الثلج الذي ليس فيه برودة، بيده العارية التي لا تشعر بِبَلَل. «لماذا؟ لأن هذا المكان ليس له معنى بالنسبة إليّ. لأنني لا أشعر بأنني ملاك، إن كان هذا ما يُفترض أن أشعر به. لأنني لا أشعر أنني أفهم كل هذا. لا أستطيع حتى أن أتذكر مَوتي. لا أستطيع أن أتذكر الحادثة. كل ما أتذكره هو هاتان اليدان الصغيرتان - هذه الفتاة الصغيرة التي كنت أحاول إنقاذها، هل تفهمين؟ كنت أحاول أن أشدّها بعيداً ولا بدَّ أنني أمسكت بيديها وعندها حدث وأن...».

هزّ كتفيه.

«مِتُّ؟»، قالتها العجوز بابتسامة. «تُوفيتَ؟ رحلتَ، عُدتَ إلى خالقك؟».

تنهّد قائلاً: «مِتُّ. وهذا كل ما أتذكره. ثم أنتِ، والآخرون، وكل هذا. ألا يُفترض أن تنالوا السكينة عندما تموتون؟».

قالت العجوز: «المرء ينال السكينة عندما يسكن إلى نفسه».

قال إيدي وهو يهزّ رأسه: «لا، لا ينالها». فكّر في إخبارها بالجَزَع الذي ظلّ يشعر به كلّ يوم منذ الحرب، الكوابيس، العجز عن التحمُّس لأي شيء تقريباً، المرات التي كان يذهب فيها إلى المرسى وحيداً ويراقب الأسماك تُسحب في شباك كبيرة من الحبال، يشعر بالخجل لأنه يرى نفسه في تلك الكائنات المتخبِّطة العاجزة، حبيسة الشِّباك، عاجزة عن الهرب.

لم يخبرها بذلك. بدلاً من ذلك قال: «لا تؤاخذيني يا سيدتي، لكنني لا أعرفكِ أصلاً».

قالت: «لكنني أعرفك».

تنهَّدَ إيدي.

«آه، نعم؟ وكيف ذلك؟».

قالت: «طيّب. إذا سمحتَ لي بلحظة».

ثم جَلَسَت، وإن لم يكن ثمة مقاعد للجلوس. اتكأت ببساطة على الهواء ووضعت ساقاً على ساق، بطريقة السيدات الراقيات، محافظةً على استقامة ظهرها. انسدلَت تنُّورتها في طيّات أنيقة حولها. هبَّ نسيم، واستشعرَ إيدي رائحةَ عطر خفيفة.

«كما قلتُ لك، كنتُ في السابق فتاةً عاملة. كانت وظيفتي تقديم الطعام في أماكن مثل «مشويات فرس البحر». كان بجوار المحيط حيث نشأتَ أنتَ. لعلك تتذكره؟».

أومأت باتجاه المطعم، فعاد كل شيء إلى إيدي. بالطبع. ذلك المكان. كان يتناول فيه الإفطار. «ملعقة مزيَّتة» كما كانوا يُطلقون عليه، مطعماً صغيراً للمقليّات. لقد هَدَموه قبل سنوات طويلة.

قال إيدي، ضاحكاً تقريباً: «أنتِ؟ أنتِ كنت تُخدِّمين في «مشويات فرس البحر»؟».

قالت بفخر: «صحيح. أقدِّم القهوة لعمّال الميناء، وكعكة سرطان البحر واللحم المقدَّد لعمّال الشحن والتفريغ.

«ويمكنني أن أضيف أنني كنتُ فتاة جذابة في تلك السنين. رفضتُ الكثير من عروض الزواج. كانت شقيقاتي يوبخنني. يَقُلنَ: «من أنت لتكوني انتقائية هكذا؟ اتخذي زوجاً قبل فوات الأوان».

«ثم ذات صباح، دخل من باب المطعم رجل نبيل هو أكثر الرجال الذين رأيتهم وسامة. كان يرتدي بدلة مقلَّمة وقبّعة ديربي. شعره الداكن مهندَم وشاربه يغطّي ابتسامة دائمة. أومأ لي عندما

قدَّمتُ له طلبه وحاولتُ ألّا أحدق فيه. لكن عندما تحدّث مع زميله، سمعتُ ضحكته الواثقة العالية. ضبطتُه مرتين وهو ينظر باتجاهي. عندما دفع الحساب، قال إن اسمه إميل وسأل إن كان بإمكانه زيارتي. وعرفتُ لحظتها أن شقيقاتي لن يطاردنني من أجل اتخاذ قرار بعد الآن.

«كانت رفقتُنا مبهجة، إذ كان إميل رجلاً ميسور الحال. أخذني إلى أماكن لم أدخلها من قبل، اشترى لي ملابس لم أتخيّلها من قبل، حاسبَ على وجبات لم أتذوّقها من قبل في حياتي المحصورة الفقيرة. كان إميل قد كسب ثروته في وقت قصير، من الاستثمار في الخشب والصلب. كان مسرفاً، مجازفاً - يذهب إلى أبعد الحدود عندما تأتيه فكرة. أعتقد أن ذلك ما جعله ينجذبُ إلى فتاة فقيرة مثلي. كان يمقت هؤلاء الذين ولدوا أثرياء، ويستمتع كثيراً بفعل الأشياء التي لن يفعلها «ذوو الثقافة الرفيعة» قَطّ.

«إحدى تلك الأشياء كانت زيارة المنتجعات البحرية. كان يحب الألعاب، الطعام المالح، الغجر وقُرّاء الطالع ومخمّني الأوزان والفتيات الغطّاسات. وكنا كلانا نحب البحر. ذات يوم، ونحن جالسان في الرمال، والمدُّ يتدحرج بلطف إلى أقدامنا، طلب يدي للزواج.

«كدتُ أطير من الفرح. قَبِلتُ وسمعنا أصوات أطفال يلعبون في المحيط. ذهب إميل إلى أبعد الحدود مجدداً وأقسم أنه قريباً سيشيِّد حديقة ملاهٍ لي وحدي، لكي يقبض على سعادة هذه اللحظة - لكي نظلّ شباباً إلى الأبد».

ابتسمت العجوز. «أوفى إميل بعهده. بعدها ببضع سنوات، عقد صفقة مع شركة للسكك الحديدية، كانت تبحث عن طريقة

لزيادة عدد ركابها في عطلات نهاية الأسبوع. على هذا النحو شُيِّدَت معظم حدائق الملاهي، كما تعرف».

أومأ إيدي برأسه. كان يعرف. معظم الناس لا يعرفون. يظنون أن حدائق الملاهي شُيِّدَت بأيدي عفاريت أقزام وبُنيت من عِصيّ الحلوى. في الحقيقة، كانت ببساطة فرصٌ استثمارية لشركات السكك الحديدية، التي شيَّدَتها في نهايات الخطوط، حتى يجد الركاب سبباً يدعوهم للركوب في عطلات نهاية الأسبوع. كثيراً ما ردَّد إيدي: **هل تعرف أين أعمل؟ في نهاية الخطّ. هناك أعمل.**

تابعَت المرأة العجوز: «شيَّد إميل مكاناً رائعاً، منتزهاً هائلاً على الرصيف البحري باستخدام الخشب والصلب الذي يملكهما بالفعل. ثم جاءت وسائل التسلية الساحرة - سباقات وألعاب ورحلات بالقوارب وسكك حديدية مصغّرة. كانت هناك لعبة خيول دوَّارة مستورَدة من باريس وساقية عملاقة من أحد المعارض الدولية في ألمانيا. كانت هناك أبراج وقمم مستدقَّة وآلاف الأنوار الوهّاجة، ساطعة جدّاً حتى أنك كنت تستطيع، في الليل، رؤية المنتزه من على سطح سفينة في المحيط.

«استأجر إميل مئات العمّال، عمّال محليين وعمّال كرنفالات وعمّال أجانب. جلبَ حيوانات ولاعبي أكروبات ومهرّجين. كان المدخل هو آخر شيء يُشيَّد، وكان فاخراً بحقّ. الجميع قالوا هذا. عندما انتهى، أخذني إلى هناك بعد أن وضع عصابة على عينيّ. عندما رفع العصابة، رأيته».

رجعَت العجوز خطوة بعيداً عن إيدي. نظرَت إليه بفضول، وكأنها محبَطة.

ثم يستيقظ. متعرّقاً. لاهثاً. الشيء نفسه دائماً. أسوأ ما في الأمر ليس انقطاع النوم. أسوأ ما في الأمر هو العتمة التي يخلّفها الحلم فوقه، غلالة رمادية تُغبِّش يومه. حتى لحظاته السعيدة تبدو محاصَرَة، مثل ثقوب مغروسة في طبقة صلبة من الثلج.

يرتدي ملابسه في هدوء وينزل الدَّرَج. التاكسي ينتظره عند الناصية، في المكان المعتاد، ويمسح إيدي الرطوبة عن زجاجه الأمامي. لا يتحدّث قَطّ عن العتمة لمارغريت. تُمسِّد رأسه وتقول: «ماذا بك؟»، فيقول: «لا شيء. أنا تعبانٌ فقط». ويترك الأمور عند هذا الحدّ. كيف يفسِّر لها حزناً كهذا، هي التي يُنتظَر منها أن تجعله سعيداً؟ الحقيقة أنه لا يستطيع أن يفسّر لنفسه. كل ما يعرفه هو أن شيئاً جاء ووقف أمامه، ساداً طريقه، حتى صار مع مرور الوقت يتخلّى عن أحلامه، تخلّى عن دراسة الهندسة وتخلّى عن فكرة السفر. جلس في حياته. وهناك ظلّ جالساً.

هذه الليلة، عندما يرجع إيدي من العمل، يوقف التاكسي بجوار الناصية. يصعد الدَّرَج ببطء، من شقته، يسمع موسيقى، أغنية مألوفة.

جعلتَني أحبّك
ولم أكن أريد
لم أكن أريد

يفتح الباب ليرى كعكة على الطاولة وكيساً أبيض صغيراً، مربوطاً بشريط.

تهتف مارغريت من غرفة النوم: «حبيبي. هل هذا أنت؟».

يرفع الكيس الأبيض. حلوى. من الملاهي.

«سنة حلوة يا جميل. . .»، تخرج مارغريت وهي تغنّي بصوتها الحلو الرقيق. تبدو جميلة، ترتدي الفستان المطبوع الذي يحبّه إيدي، شعرها مصفَّف وشفتاها مطليّتان. يشعر إيدي برغبة في أن يسحب شهيقاً، وكأنه لا يستحق لحظة كهذه. يُصارع العتمة بداخله، يقول لتلك العتمة: «دعيني وحدي، دعيني أشعر كما يجب أن أشعر».

تنهي مارغريت الأغنية وتقبّله على شفتيه.

تهمس له: «هل تريد أن تصارعني على الحلوى؟».

يتقدّم ليقبّلها. يطرق أحدهم الباب.

«إيدي! هل أنت هنا؟ إيدي؟».

السيد ناثانسون، الخبّاز، يعيش في شقة الطابق السفلي وراء المتجر. لديه هاتف. عندما يفتح إيدي الباب، يجده واقفاً أمامه، يرتدي رداء الاستحمام، ويبدو عليه القلق.

يقول: «إيدي، انزل. مكالمة هاتفية. أظنُّ أن شيئاً حدث لوالدك».

«أنا روبي».

فجأة أصبح الأمر مفهوماً لإيدي، لماذا بَدَت تلك المرأة مألوفة. كان قد رأى صورة فوتوغرافية، في مكان ما في مؤخّرة ورشة الإصلاح، بين الكتيّبات وأوراق الملكية القديمة للحديقة.

قال إيدي: «المدخل القديم...».

أومأت برأسها في رِضا. كان المدخل الأصلي لروبي بير مَعْلماً من معالم البلدة، مبنى مقوَّس عملاق على طراز معبد فرنسي قديم، بأعمدة مخدَّدة، وفوقه قُبّة مقوَّسة. تحت القبّة مباشرة، التي يمر من أسفلها كل الزبائن، كان وجهٌ مرسومٌ لامرأة جميلة. هذه المرأة. روبي.

قال إيدي: «لكن هذا الشيء هُدم قبل زمن طويل. لقد اندلع...».

توقّف.

قالت العجوز: «حريقٌ كبيرٌ. نعم. حريق كبير جدّاً». أنزلَت ذقنها، ونظرت عيناها إلى أسفل من وراء النظارة، وكأنها تقرأ من حِجرها.

«كان عيد الاستقلال، الرابع من يوليو - عُطلة. كان إميل يحبّ العطلات. يقول إنها «جيّدة للأعمال». إذا مضى عيد الاستقلال على

نحو جيّد، قد يمضي الصيف كله على نحو جيّد. لذا رتّب إميل لألعاب نارية. جاء بفرقة موسيقية استعراضية. بل استأجر عمّالاً إضافيين، عُمّال يَوميَّة في أغلبهم، فقط لهذين اليومين.

«لكن شيئاً وقع في الليلة السابقة على الاحتفال. كان الجو حارّاً، حتى بعد أن تراجعت الشمس، وقرّر عددٌ من عمال اليوميَّة النوم في الخارج، وراء العنابر. أشعلوا ناراً في برميل معدني ليشووا بعض الطعام.

«مع تقدُّم الليل، صار هناك سُكرٌ وعربدة. وضع العمّال أيديهم على بعض الألعاب النارية الصغيرة. أشعلوها. هبّت الريح. تطاير الشرر. كل شيء في تلك الأيام كان مصنوعاً من الخشب البُغداديّ المطليّ بالقار...».

هزّت رأسها. «الباقي حدثَ بسرعة. انتشرت النيران إلى منطقة العروض والأكشاك الخشبية ثم إلى أقفاص الحيوانات. فرَّ عمال اليوميّة هاربين. عند وصول أول شخص إلى منزلنا لإيقاظنا، كانت النيران تلتهم روبي بير. من نافذتنا رأينا اللهب البرتقالي الرهيب. سمعنا حوافر الجياد وعربات الإطفاء. كان الناس في الشوارع.

«توسلتُ إلى إميل كي لا يذهب، لكن بلا جدوى. بالطبع سيذهب. سيذهب إلى النار المستعرة وسيحاول إنقاذ سنوات من العمل وسيسقط فريسة للغضب والخوف، وعندما أمسكَت النيران بالمدخل، المدخل الذي يحمل اسمي وصورتي، فَقَدَ صوابه ولم يعد يعرف أين هو. كان يحاول إلقاء دلاء من الماء عندما انهار عمود فوق رأسه».

شبَّكَت أصابع يديها ورفعتها إلى شفتيها. «في ليلة واحدة، تغيَّرت حياتنا إلى الأبد. لم يكن إميل، المجازف بطبيعته، قد أمَّنَ

على الملاهي إلّا بقدرٍ زهيد من المال. فَقَدَ ثروته. وضاعت تلك الهدية الرائعة التي صنعها لأجلي.

«يائساً، باع الأرض المتفحّمة لرجل أعمال من بنسيلفانيا بأقل كثيراً من قيمتها. رجل الأعمال هذا حافظ على الاسم، روبي بير، ومع الوقت، أعاد افتتاح الحديقة. لكنها لم تعد حديقتنا.

«انكسرت روح إميل كما انكسر جسده. استغرق الأمر ثلاث سنوات قبل أن يتمكن من المشي بمفرده. رحلنا بعيداً، إلى مكان خارج المدينة، شقة صغيرة، حيث عشنا حياة متواضعة، أُمرِّض زوجي وأُضمر أمنية واحدة».

توقَّفَت.

قال إيدي: «أيّ أمنية؟».

«أتمنى لو أنه لم يبنِ هذا المكان قَطّ».

جلسَت العجوز صامتة. تَطلَّعَ إيدي إلى السماء الشاسعة بلون اليَشم. فكّر كم مرة تمنّى الأمنية نفسها، لو أن من شيّد روبي بير، أيّاً من كان، قد فعل شيئاً آخر بنقوده.

«أنا آسف لما حدث لزوجك»، قالها إيدي، لأنه لم يعرف ماذا يقول غير ذلك.

ابتسمت العجوز: «شكراً لك يا عزيزي. لكننا عشنا سنوات كثيرة بعد ذلك الحريق. ربَّينا ثلاثة أطفال. كان إميل مريضاً، يدخل ويخرج من المستشفى. تركني أرملة وأنا في الخمسينيات من عمري. هل ترى هذا الوجه، هذه التجاعيد؟». رفعَت خدَّيها إلى أعلى. «لقد جنيتُ كلَّ واحد منها، بكدِّي واجتهادي».

عبس إيدي. «لا أفهم. هل نحن... التقينا من قبل؟ هل حدث وأن زرتِ الملاهي؟».

قالت: «لا. لم أرغب قَطّ في رؤية الملاهي ثانية. أبنائي ذهبوا إلى هناك، وأبناؤهم، وأبناء أبنائهم. لكن ليس أنا. كانت فكرتي عن الجنة هي أنها أبعد مكان ممكن عن المحيط، هناك في ذلك المطعم الصغير المزدحم، عندما كانت أيامي بسيطة، عندما كان إميل يغازلني».

حكّ إيدي صدغيه. عندما تنفّسَ، خرجت أنفاسه مغبَّشة.

قال: «إذاً لماذا أنا هنا؟ أقصد، قصّتك، الحريق، كل ذلك حدث قبل مولدي».

قالت: «الأشياء التي حدثت قبل مولدك لا تزال تؤثّر فيك. والناس الذين جاءوا قبلك يؤثرون فيك أيضاً.

«نحن نتحرك كل يوم بين أماكن لم تكن لتوجد قَطّ لولا الناس الذين جاءوا من قبلنا. أماكن عملنا، حيث نقضي تلك الأوقات الطويلة - كثيراً ما نظن أنها بدأت لدى وصولنا. هذا ليس صحيحاً».

نَقرَت أناملها معاً. «لولا إميل لما كان لي زوج. لولا زواجنا، لما كانت هناك ملاو. لولا الملاهي، لما انتهى بك الحال عاملاً هناك».

هرش إيدي في رأسه. «إذاً أنت هنا لتحدّثيني عن العمل».

أجابته روبي بصوت ازداد رقّة: «لا يا عزيزي. أنا هنا لأقول لك لماذا مات أبوك».

كانت المكالمة الهاتفية من والدة إيدي. لقد سقطَ والده عصر

ذلك اليوم، على الطرف الشرقيّ من الممشى الخشبي بالقرب من لعبة «الصاروخ الصغير». أُصيب بحمّى شديدة.

قالت أمه، بصوت مرتعش: «إيدي، أنا خائفة». حَكَت له عن تلك الليلة، قبل أسبوع، عندما عاد والده عند الفجر، مخضلاً بالماء. ملابسه مليئة بالرمل. كان بفردةِ حذاء واحدة. قالت إنه كان ينضح برائحة المحيط. وقال إيدي في نفسه إنه لا بدَّ كان ينضح برائحة الشراب أيضاً.

شرحت له أمه: «كان يسعل. ولم يتحسّن، بل ازداد سوءاً. كان يجب أن نستدعي طبيباً على الفور...». ثم تدفَّقَت في الحكي: «ذهب إلى العمل ذلك اليوم على الرغم من مرضه، مع حزام أدواته والمطرقة -مثل العادة- لكنه في تلك الليلة رفض تناول الطعام وفي السرير راح يسعل سعالاً جافّاً وصدره يُطلق أزيزاً مع أنفاسه وينسال العرق مُغرقاً قميصه الداخلي. اليوم التالي صار أسوأ. والآن، عصرُ هذا اليوم، سقط مغشيّاً عليه.

«قال الطبيب إنه التهاب رئوي. آه، كان عليَّ أن أفعل شيئاً. كان عليَّ أن **أفعل** شيئاً...».

سأل إيدي: «وماذا كان يمكن أن تفعلي؟». شعر بالغضب لأنها تلوم نفسها على ذلك. إنها غلطة والده السكّير.

عَبْر الهاتف، سمعها تبكي.

كان والد إيدي يقول إنه قضى سنوات عديدة من حياته بجوار المحيط حتى أنه صار يتنفس ماء البحر. الآن، بعيداً عن المحيط، حبيس الفراش في المستشفى، بدأ جسده يذوي مثل سمكة انجرفت إلى الشاطئ. تطوَّرَت المضاعفات. تزايد الاحتقان في صدره.

تحوَّلَت حالته من الجيدة إلى المستقرة، ومن المستقرة إلى الخطيرة. وتحوَّل أصدقاؤه من قول: «سيرجع إلى البيت في خلال يوم واحد» إلى: «سيرجع إلى البيت في خلال أسبوع». في غياب والده، راح إيدي يساعد في أشغال الملاهي، يعمل مساءً بعد أن ينتهي من ورديّة التاكسي، يُشحِّم القضبان، يفحص دوّاسات الفرامل، يختبر الروافع، بل يُصلح أجزاء الألعاب المكسورة في الورشة.

ما كان يفعله حقّاً هو حماية وظيفة والده. نَظَر المُلّاك إلى جهوده بعين التقدير، ودفعوا له نصف ما كان يكسبه والده. كان يُعطي النقود لأمه، التي تذهب إلى المستشفى كل يوم وتبيت هناك معظم الليالي. كان إيدي ومارغريت ينظّفان شقتها ويشتريان لها الطعام.

عندما كان إيدي مراهقاً، كلّما شكا أو بدا ضجراً من الملاهي، كان والده يَزعق فيه: «ماذا؟ ليست جديرة بك؟». ولاحقاً، عندما اقترحَ عليه أبوه أن يعمل هناك بعد المدرسة، كاد إيدي أن يضحك، ومجدّداً قال والده: «ماذا؟ ليست جديرة بك؟». وقبل أن يذهب إيدي إلى الحرب، عندما تحدّث عن رغبته في الزواج من مارغريت وفي أن يصبح مهندساً، قال والده: «ماذا، ليست الملاهي جديرة بك؟».

والآن، رغم كل ذلك، ها هو ذا، في الملاهي، يؤدّي عمل والده.

أخيراً، ذات ليلة، تحت إلحاح من والدته، زار إيدي المستشفى. دخل الغرفة ببطء. الآن، كان والده، الذي ظلَّ لسنوات يرفض الكلام مع إيدي، غير قادر حتّى على المحاولة. راقب ابنه بعينين ثقيلتَي الأجفان. إيدي، بعد أن جاهد للعثور على جملة

واحدة يقولها، فعل الشيء الوحيد الذي أمكنه التفكير فيه: رفعَ يديه وعرضَ أنامله الملوَّثة بالشحم أمام عينَي والده.

قال له بقيّة عُمّال الصيانة: «لا تقلق يا فتى. أبوك سينجو. إنه أقوى ابن عِفريتةٍ رأيناه في حياتنا».

نادراً ما يتخلّى الآباء عن أبنائهم، لذا يتخلّى الأبناءُ عنهم. يغادرون. يرحلون بعيداً. اللحظات التي كانت تُضفي معنىً على حياتهم -استحسانٌ من الأم، إيماءةٌ من رأس الأب- تحلُّ محلَّها لحظاتُ إنجازاتهم الخاصة. ولا يفهم الأبناء إلّا بعد وقت طويل، عندما تترهل جلودهم وتوهِن قلوبهم، أن قصصهم وكل إنجازاتهم تستوي فوق قصص أمهاتهم وآبائهم، أحجاراً فوق أحجار، في قاع أنهار حيواتهم.

عندما جاءه خبر موت والده -«انسلَّ بعيداً»، كما أخبرته الممرضة، وكأنه خرج لشراء الحليب- شعر إيدي بنوع فارغ جدّاً من الغضب، من ذلك الذي يدور داخل قفصه. مثل معظم أبناء العمّال، كان إيدي قد استبصرَ ميتةً بطوليّة لوالده تُوازن حياته العادية. لم يكن هناك شيء بطولي في أن يُغشى على المرء فوق الشاطئ من فَرط السكر.

اليوم التالي، ذهب إلى شقة والديه، دخل غرفة نومهما، وفتح كل الأدراج، وكأنه يبحث عن قطعة من والده بداخلها. فتَّش وسط عملات معدنية، دبّوسُ ربطةِ عنق، زجاجة صغيرة من براندي التفاح، أربطة مطاطية، فواتير كهرباء، أقلام، وقدّاحة سجائر مرسوم عليها حوريّة بحر. أخيراً، عثر على دِكّة من ورق اللعب. وضعها في جيبه.

كانت الجنازة صغيرة وقصيرة. في الأسابيع التالية، عاشت والدة إيدي في حالة ذهول. كانت تتحدث إلى زوجها وكأنه لا يزال موجوداً. تصرخ فيه لكي يُخفض صوت المذياع. تطبخ طعاماً لشخصَين. تَنفِش الوسائد على جنبَي السرير، مع أن جنباً واحداً كان يجد من ينام عليه.

ذات ليلة، رآها إيدي تُكوِّم الصحون على منضدة المطبخ.

قال: «دعيني أساعدك».

أجابته أمه: «لا، لا. والدك سيضعها في أماكنها».

وضع إيدي يداً على كتفها.

قال برقّة: «ماما. بابا رحل».

«رحل إلى أين».

اليوم التالي، ذهب إيدي إلى مأمور تشغيل سيارات التاكسي وأخبره أنه سيترك العمل. بعدها بأسبوعين، عاد مع مارغريت إلى البناية التي نشأ فيها، شارع «بيتشوود» -شقة رقم 6 (ب)- حيث الردهات ضيّقة ونافذة المطبخ تطلّ على لعبة الخيول الدوّارة وحيث قَبِلَ إيدي وظيفة ستسمح له بإبقاء عينيه على أمّه، وظيفة سبق وأن تدرَّب عليها صيفاً بعد صيف: مسؤول صيانة في روبي بير. لم يُفصح إيدي عن هذا أبداً -لا لزوجته، ولا لأمه، ولا لأحد- لكنه كان يَلعن والده على وفاته وعلى حبسه في تلك الحياة التي ظلّ طوال عمره يحاول الهروب منها؛ حياة أدرك الآن، وهو يسمع الرجل العجوز يضحك من قبره، أنها كانت جديرة به.

اليوم عيد ميلاد إيدي

إنه في السابعة والثلاثين. إفطاره يبرد.

يسأل إيدي نويل: «هل ترى أيّ ملح؟».

ينسلُّ نويل من الكابينة، وهو يمضغ لقمة من السجق، ويميل على طاولة أخرى، ويأخذ رشّاشة ملح.

يدمدم: «هاكَ. عيد ميلاد سعيد».

يهزّها إيدي بقوة. «هل صعبٌ عليهم أن يضعوا الملح على الطاولة؟».

يقول نويل: «ومن أنت، المدير؟».

يهزّ إيدي كتفيه. الصبحُ حارٌّ من أوّله والرطوبة كثيفة. هذا روتينهما اليومي: إفطار، مرة في الأسبوع، صباح السبت، قبل أن تزدحم الملاهي ويُجنّ جنونها. نويل يعمل في مجال التنظيف الجاف. إيدي ساعده على التعاقد مع روبي بير لتنظيف ملابس عمّال الصيانة.

يقول نويل: «ما رأيك في هذا الرجل الوسيم؟». كانت أمامه نسخة من مجلة «لايف» مفتوحة على صورة لمرشّح سياسي شاب. «كيف لهذا الرجل أن يرشّح نفسه للرئاسة؟ إنه طفل!».

يهزّ إيدي كتفيه. «إنه في عمرنا تقريباً».

يقول نويل: «تتكلم بجد؟». يرفع حاجباً. «ظننتك يجب أن تكون كبيراً لكي تكون رئيساً».

يدمدم إيدي: «نحنُ كبار».

يغلق نويل المجلة. ينخفض صوته. «إيه. هل سمعت عمّا حدث في برايتون؟».

يومئ إيدي برأسه. يرتشف من قهوته. لقد سمع. حديقة ملاهٍ. لعبة ركوب. شيءٌ انقطع. أمٌّ وابنها سقطا من ارتفاع عشرين متراً إلى حتفهما.

يسأل نويل: «هل تعرف أحداً هناك؟».

يضع إيدي لسانه بين أسنانه. من حين إلى آخر يسمع بقصص كهذه، حادثة في ملاهٍ في مكان ما، ويرتجف وكأن دبوراً قد اندفع لتوّه بجوار أذنه. لا يمرُّ يوم دون أن يخاف أن تقع الواقعة هنا، في روبي بير، في ورديّته.

يقول: «لا. لا أعرف أحداً في برايتون».

يُثبِّت عينيه على النوافذ. حشدٌ من المصطافين يخرج من محطة القطار. يحملون فُوَطاً، مظلات، سلالاً من الخُوص فيها ساندويتشات ملفوفة في الورق. بل يحمل بعضهم أحدث صيحة: الكراسي القابلة للطيّ، المصنوعة من الألومنيوم الخفيف.

يمرُّ رجلٌ مسنّ يعتمر قبعة بَنَما، ويدخّن سيجاراً.

يقول إيدي: «انظر إلى هذا الرجل. أعدك أنه سيُسقط ذلك السيجار على الممشى الخشبي».

يقول نويل: «صحيح؟ ثم ماذا؟».

«يَسقط في الشقوق، ثم يبدأ في الاشتعال. تستطيع أن تشم الرائحة. المادة الكيميائية التي يضعونها على الخشب. يبدأ الدخان في التصاعد منها على الفور. بالأمس أمسكتُ بطفل، لا يمكن أن يكون أكثر من أربع سنوات، على وشك وضع عقب سيجار في فمه».

يلوي نويل وجهه: «لُمّ؟».

يستدير إيدي بعيداً عنه. «ثم لا شيء. يجب أن يكون الناس أكثر حرصاً، هذا كل شيء».

يغترف نويل ملء شوكة من السجق ويدسّها في فمه. «أنت مرحٌ جداً. هل تكون مرحاً هكذا في عيد ميلادك دائماً؟».

لا يَردّ إيدي. كانت العتمة القديمة قد اتخذت مقعداً إلى جانبه. أصبح معتاداً عليها، يُفسح لها المجال كما تُفيح المجال لراكبٍ في حافلة مزدحمة.

يفكّر في مهام الصيانة اليوم. مرآة مكسورة في «بيت المرح». مصدّات جديدة لعربات التصادم. صمغ، يذكّر نفسه، يجب أن نطلب المزيد من الصمغ. يفكر في هؤلاء المساكين في برايتون. يتساءل من المسؤول هناك.

يسأله نويل: «في أي وقت تنتهي اليوم؟».

يتنهد إيدي. «سيكون يوماً حافلاً. الصيف. الأحد. تعرف».

يرفع نويل حاجباً. «هل يمكن أن نصل إلى حلبة السباق قبل السادسة؟».

يفكر إيدي في مارغريت. دائماً يفكر في مارغريت عندما يذكر نويل سباق الخيل.

يقول نويل: «هيا! إنه عيد ميلادك».

ينكز إيدي بشوكته بيضّته، التي صارت الآن أبرد من أن يشغل باله بها.

يقول: «طيّب».

الدرس الثالث

سألت المرأة العجوز: «هل كانت الملاهي سيّئة جدّاً؟».

قال إيدي، متنهّداً: «لم تكن خياري. كانت أمي بحاجة إلى مساعدة. ثم شيءٌ أدّى إلى الآخر. مرّت الأعوام. لم أغادر قَطّ. لم أعش في مكان آخر قَطّ. لم أكسب أي نقود بالمعنى الحقيقي قَطّ. تعرفين كيف تسير الأمور - تعتادين على شيء ما، يعتمد الناس عليكِ، ويوماً ما تستيقظين ولا تعرفين الثلاثاء من الخميس. تفعلين الأشياء المملة نفسها، تصبحين «مسؤول ألعاب»، وانتهى الأمر...».

«ووالدك؟».

سكت إيدي.

قالت المرأة العجوز: «كان قاسياً عليك».

خَفَض إيدي عينيه. «نعم، ثم ماذا؟».

«ربما كنتَ قاسياً عليه أنت أيضاً».

«أشكّ في ذلك. تعرفين آخر مرة تكلّم معي؟».

«آخر مرة حاول أن يضربك».

رمقها إيدي بنظرة.

«وتعرفين آخر ما قاله لي؟ «ابحث عن عمل». أبٌ رائع، هه؟».

زمَّت العجوز شفتيها. «وقد بدأتَ تعمل بعدها. نهضتَ من خمولك».

شعر إيدي بقرقرة غضب. ردَّ غاضباً: «اسمعي. أنتِ لا تعرفين الرجل».

نهضّت قائلة: «هذا صحيح. لكنني أعرف شيئاً لا تعرفه. وقد حان الوقت لأريك إيّاه».

أشارت روبي برأس مظلتها ورسمت دائرة في الثلج. عندما نظر إيدي داخل الدائرة، شعرَ وكأن عينيه تسقطان من محجريهما وتسافران لحالهما، في ثقبٍ وداخل لحظة أخرى. ازدادت الصورة حدّة. كانت قبل أعوام، في الشقة القديمة. استطاع أن يرى الأمام والخلف، الأعلى والأسفل.

وهذا ما رآه:

رأى أمَّه، تبدو قلقة، تجلس إلى طاولة المطبخ. رأى ميكي شبا، جالساً أمامها. بدا ميكي في حالة مُزرية. كان مخضلاً بالماء، وظلّ يحكّ جبهته وأسفل أنفه. بدأ ينشُج. جَلَبَت له والدة إيدي كوباً من الماء. أشارت له لكي ينتظرها، وذهبت إلى غرفة النوم وأغلقت الباب. خلعت حذاءها ورداءها المنزلي. فتحت الدولاب لتُخرج بلوزة وتنّورة.

كان إيدي يرى كل الغرف، لكنه لا يسمع ما يقوله الاثنان، فقط

مجرد أصوات مشوَّشة. رأى ميكي، في المطبخ، يتجاهل كوب المياه، يُخرج قارورة من سترته ويتجرّع منها. ثم، ببطء، نهض وسار مترنّحاً إلى غرفة النوم. فتح الباب.

رأى إيدي أمَّه، وقد ارتدت نصف ملابسها، تستدير في دهشة. كان ميكي يتمايل. لفَّت نفسها برداء. اقترب منها ميكي أكثر. مدَّت يدها غريزيّاً لصدِّه. تجمد ميكي، للحظة فحسب، ثم شدَّ تلك اليد وشدَّ والدة إيدي وزَنَقَها في الحائط، ماثلاً عليها، قابضاً على خصرها. تلوَّت، ثم صرخَت، ودفعت ميكي في صدره وهو لا يزال قابضاً على ردائها. كان أكبر منها وأقوى، ودَفَن وجهه غير الحليق تحت خديها، ملطخاً رقبتها بدموعه.

ثم انفتح باب الشقّة ووقف والد إيدي هناك، مبلّلاً من المطر، ومطرقة معلَّقة من حزامه. ركض إلى غرفة النوم ورأى ميكي يُمسك بزوجته. صاح والد إيدي. رفع المطرقة. وضع ميكي يديه على رأسه واندفع إلى الباب، مطيحاً بوالد إيدي جانباً. كانت والدة إيدي تبكي، صدرها يعلو ويهبط، والدموع تنهمر على وجهها. أمسك الزوج بكتفيها. هزّها بعنف. سقط رداؤها. كان كلاهما يصرخان. ثم غادر والد إيدي الشقة، محطّماً مصباحاً بمطرقته في طريقه. اندفع نازلاً الدرج وركض إلى داخل الليل المطير.

صرخ إيدي غير مصدِّق: «ما هذا؟ ما هذا بحق الجحيم؟».

أمسكت المرأة العجوز لسانها. ابتعدت خطوة عن الدائرة الثلجية ورسمت دائرة أخرى. حاول إيدي ألّا ينظر فيها. لم يستطع أن يمنع نفسه. كان يسقط مجدداً، يُصبح عينَين في منظرٍ.

وهذا ما رآه:

رأى عاصفة مطيرة في الحافة الأبعد لروبي بير -«النقطة الشمالية»، كما يطلقون عليها- ممشىً ضيق يمتدُّ بعيداً داخل المحيط. كانت السماء سوداء مزرقّة. الأمطار تنهمر في صفائح. جاء ميكي شيا مترنحاً باتجاه حافة الممشى. سقط على الأرض، بطنه تنقبض وتنبسط. رقد هناك للحظة، وجهه مصوّبٌ إلى السماء المظلمة، ثم انقلب على جنبه، تحت الدرابزين الخشبي. وارتمى في البحر.

ظهرَ والد إيدي بعدها بلحظات، يتمايل إلى الخلف والأمام، والمطرقة لا تزال في يده. قَبَض على الدرابزين، باحثاً في الماء. كانت الريح تعصف بالأمطار جانباً. كانت ملابسه مخضلّة وحزامُ أدواته الجلدي قد اسودّ تقريباً من كثرة ما تشرَّب المياه. رأى شيئاً وسط الأمواج. توقف، خلع حزامه، نَتَر فردة حذاءه، حاول أن يخلع الأخرى، استسلم، قَرْفَصَ تحت الدرابزين وقفز، ساقطاً بطيش، ناثراً الرشاش حوله، وسط المحيط الجيّاش.

كان ميكي يعلو ويغطس وسط أمواج البحر المتقلّبة، غائباً عن الوعي تقريباً، وسائلٌ أصفر رغويّ يخرج من فمه. سبح والد إيدي، صائحاً وسط الريح. قبضَ على ميكي. ضربَ ميكي بذراعه، ومثله فعل والد إيدي. اصطفقت السماء مُرعِدةً بينما ينهمر وابل المطر عليهما. راحا يضربان بالأذرع ويحاولان الإمساك ببعضهما وسط المياه الهائجة.

سعل ميكي بقوة وقبضَ والد إيدي على ذراعه وعلّقَه على كتفه. غَطَس إلى أسفل، وصعد ثانية، ثم ثَبَّتَ ثِقلَه ثانيةً على جسد ميكي، رافعاً إيّاه باتجاه الشاطئ. راح يركل بقدميه. تقدَّمَا إلى الأمام. كسحتهما موجةٌ إلى الوراء. ثم إلى الأمام ثانية. كانت أمواج

المحيط تضارب وتتلاطم، لكنّ والد إيدي ظلَّ يُثبِّت نفسه تحت إبط ميكي، ضارباً بساقيه، طارفاً عينيه بقوّة لتنقية رؤيته.

أدركا قمّة موجةٍ وحقّقا تقدّماً مفاجئاً باتجاه الشاطئ. أنَّ ميكي وشَهق، بَصق والد إيدي ماءً مالحاً. بدا أن الأمر استغرق دهراً، المطر يُفرقِع، الزَّبد الأبيض يلطم وجهيهما، الرجلان ينخران، يضربان بأذرعهما في كل اتجاه. أخيراً، رفعتهما موجة عالية ملتفّة إلى أعلى ورمتهما على الرمل، وتقلَّب والد إيدي من تحت ميكي ووجد في نَفْسه قوةً لتعليق يديه تحت إبطَي ميكي والإمساك به كي لا تكتسحه الأمواج المتكسّرة. عندما تراجعت الأمواج، رَفَعَ ميكي إلى الأمام بفَوْرةٍ أخيرة، ثم انهار على الشاطئ، فمه مفتوحٌ، مملوءٌ بالرمل الرطب.

عادت رؤية إيدي إلى جسده. شعر بأنه مرهق، مستنزَف، وكأنه كان في ذلك المحيط بنفسه. كان رأسه ثقيلاً. كل ما ظنَّ أنه كان يعرفه عن والده، لم يعد يبدو كما يعرفه.

همس إيدي: «ماذا كان **يفعل**؟».

قالت روبي: «يُنقذ صديقاً».

رماها إيدي بنظرة لاهبة. «يا له من صديق. لو كنت مكانه، لتركتُ ذلك السكّير يغرق».

قالت العجوز: «والدك فكّر في هذا أيضاً. لقد هرعَ وراء ميكي لكي يؤذيه، وربما حتّى يقتله. لكن في النهاية لم يستطع. كان يعرف مَن هو ميكي. كان يعرف عيوبه. كان يعرف أنه أفرط في الشراب. كان يعرف أن وعيه تشوَّشَ.

«لكنْ قبلها بسنوات طويلة، عندما كان والدك يبحث عن عمل،

كان ميكي هو الذي ذهب إلى صاحب الملاهي وزكّاه. وعندما وُلدتَ أنتَ، كان ميكي هو الذي أقرض والديك المال القليل الذي كان بحوزته، ليساعد في إطعام فمٍ آخر. كان والدك يأخذ الصداقات القديمة بجدّية...».

قاطعها إيدي بحدّة: «انتظري يا سيدتي. هل رأيتِ ما فعله هذا الوغد مع أمي؟».

قالت المرأة بحزن: «رأيتُ. كان خطأً. لكن الأمور لا تبدو كما تظهر دائماً.

«كان ميكي قد فُصل من عمله ذلك النهار. نام مجدّداً أثناء ورديته، أفرط في الشراب وعجز عن البقاء مستيقظاً، وأخبره أصحاب العمل أن ذلك يكفي. تعاملَ مع الخبر كما كان يتعامل مع كل الأخبار السيّئة، بالمزيد من الشراب، ولدى وصوله إلى أمك كان جسده متعباً بالويسكي. كان يتوسّل المساعدة. أراد استعادة وظيفته. كان والدك يعمل لوقت متأخّر. وكانت أمك ستأخذه إليه.

«كان ميكي خشناً، لكن ليس شريراً. في تلك اللحظة، كان ضائعاً، هائماً بغير هدى، وما فعله إنما نبعَ من وحدة ويأس. انصاع لخاطرٍ. خاطر سيّئ. وانصاع والدك لخاطرٍ، أيضاً، وبينما كان خاطره الأول أن يَقتل، كان خاطره النهائي أن يُنقذ حياة إنسان».

عقدت يديها فوق قمة مظلتها.

«هكذا سقط مريضاً، بالطبع. ظلّ راقداً هناك على الشاطئ لساعات، منقوعاً ومنهكاً، قبل أن تأتيه القوة ليجاهد من أجل العودة إلى بيته. لم يكن والدك شاباً في ذلك الوقت. كان كهلاً في الخمسينيات من عمره».

قال إيدي بنبرة جوفاء: «في السادسة والخمسين».

كرَّرت المرأة العجوز: «في السادسة والخمسين. كان جسده قد وَهن، وتركه المحيط هشّاً، وتملَّكَ منه الالتهاب الرئوي، ومع الوقت، مات».

قال إيدي: «بسبب ميكي».

قالت: «بسبب الإخلاص».

«لا أحد يموت بسبب الإخلاص».

ابتسمَت: «فعلاً؟ الدِّين؟ الحكومة؟ ألا نُخلص لأشياء كهذه، حتى الموت أحياناً؟».

هزّ إيدي كتفيه.

قال: «الأفضل أن نُخلص بعضنا لبعض».

بعدها، ظلَّ الاثنان في الوادي الجبلي الثلجي لوقت طويل. على الأقل شعر إيدي أنه طويل. لم يعد متأكّداً من طول الزمن.

قال إيدي: «ماذا حدث لميكي شيا؟».

قالت العجوز: «مات، وحيداً، بعد بضعة سنوات. ظلّ يشرب حتى القبر. لم يسامح نفسه أبداً على ما حدث».

قال إيدي، وهو يحكّ جبهته: «لكن أبي. لم يقل أي شيء».

«لم يتحدث عن تلك الليلة بعدها، لا مع أمّك، ولا مع أي إنسان. كان يشعر بالعار لأجلها، ولأجل ميكي، ولأجل نفسه. في المستشفى، توقف عن الكلام نهائيّاً. كان الصمت مهرَبَه، لكنّ الصمت ليس ملاذاً. ظلت الأفكار تسكُنه.

«ذات ليلة تباطأت أنفاسه وانغلقت عيناه ولم يتمكنوا من إيقاظه. قال الأطباء إنه سقط في غيبوبة».

كان إيدي يتذكر تلك الليلة. مكالمة هاتفية أخرى للسيد ناثانسون. طرقةٌ أخرى على بابه.

«بعدها، ظلت والدتك إلى جوار فراشه. في النهار والليل. كانت تنتحب لنفسها، هامسةً، وكأنها تصلي: «كان عليَّ أن أفعل شيئاً. كان عليَّ أن أفعل شيئاً...».

«في النهاية، ذات ليلة، بناء على إلحاح من الأطباء، عادت إلى البيت لتنام. في وقت مبكّر من الصباح التالي، وَجَدَت إحدى الممرضات والدك مرتمياً بنصف جسده من النافذة».

«انتظري»، قالها إيدي. ضاقت عيناه. «النافذة؟».

أومأت روبي برأسها. «في لحظة ما أثناء الليل، استيقظ أبوك. نهض عن سريره، وسار متعثّراً في الغرفة، ووجد القوة لرفع زجاج النافذة. نادى على أمّك بما تبقى له من صوت واهن، ونادى عليك، أيضاً، وعلى شقيقك جو. ونادى على ميكي. في تلك اللحظة، بدا أن قلبه ينسكب إلى الخارج، كل الذنب والندم. ربما شعر بنورِ الموت يقترب. ربما ظنّ فقط أنكم جميعاً في مكان ما هناك، في الشوارع تحت نافذته. انحنى على الإفريز. كان الليل بارداً. كانت الريح والرطوبة، في حالته تلك، تفوق احتماله. ماتَ قبل الفجر.

«الممرضات اللاتي وجدنه سحبنَه ثانيةً إلى السرير. خِفْنَ على وظائفهنّ، لذا لم ينطقن بكلمة. هكذا، قيل إنه مات أثناء نومه».

ارتمى إيدي إلى الخلف، مذهولاً. فكّر في تلك الصورة الأخيرة. والده، حصان الحرب العجوز القوي ذلك، يحاول أن يزحف خارجاً من النافذة. إلى أين كان يذهب؟ فيمَ كان يفكر؟ ما الأسوأ حين يمضي بلا تفسير: حياةُ الإنسان، أم موته؟

سأل إيدي روبي: «كيف تعرفين كل هذا؟».

تنهَّدَت. «والدك لم يكن معه ما يكفي لغرفة خاصة في المستشفى. وكذا الرجل على الجانب الآخر من الستار».

تمهَّلَت.

«إميل. زوجي».

رفع إيدي عينَيه. تحرّك رأسه إلى الخلف وكأنه قد حلّ أحجية لتوّه.

«إذاً رأيتِ أبي».

«نعم».

«وأمي».

«سمعتُ نحيبها في تلك الليالي الوحيدة الأخيرة. لم نتكلم قَطّ. لكن بعد وفاة والدك، استفسرتُ عن أسرتك. عندما عرفتُ أين كان يعمل، شعرتُ بوخزة ألم، وكأنني فقدت عزيزاً أنا نفسي. حديقة الملاهي التي تحمل اسمي. شعرتُ بظلّها الملعون، وتمنيتُ ثانيةً لو أنها لم تُشيَّد قَطّ.

«تلك الأمنية لحقتني إلى الجنة، حتى وأنا أنتظرك».

بدا إيدي مرتبكاً.

قالت: «المطعم». أشارت إلى نقاط الضوء في الجبال. «إنه هناك لأنني أردتُ العودة إلى سنوات شبابي، حياة بسيطة لكنها آمنة. وأردتُ الأمن والأمان لكل مَن عانوا في روبي بير - كل حادثة، كل حريق، كل مشاجرة، زلّة، وسَقْطة. أردتُ لهم جميعاً كما أردتُ لإميل، الدفء، الشبع، في حضنِ مكانٍ مرحِّب، بعيداً عن البحر».

نهضَت روبي، ونهض إيدي أيضاً. لم يستطع أن يمنع نفسه عن التفكير في موت والده.

دمدم قائلاً: «لقد كرهتُه».

أومأت العجوز برأسها.

«كان رهيباً معي وأنا طفل. وصار أسوأ عندما كبرتُ».

تقدَّمَت روبي تجاهه. قالت برقّة: «إدوارد». كانت أول مرة تخاطبه باسمه. «تعلَّم هذا مني. كَتْمُ الغضب سُمٌّ. يأكلك من الداخل. نحن نظن أن الكراهية سلاحٌ يهاجِم الشخص الذي أذانا. لكن الكراهية خنجرٌ معقوف. والأذى الذي نوقِعه، إنما نوقِعه بأنفسنا.

«اغفر يا إدوارد. اغفر. هل تتذكر الخفّة التي شعرتَ بها لدى وصولك إلى الجنة؟».

تذكَّر إيدي. **أين ألمي؟**

«هذا لأننا لا نولَد بالغضب. وعندما نموت، تتحرّر منه الروح. لكن الآن، هنا، لكي تمضي قُدماً، عليك أن تفهم لماذا شعرتَ بهذا الشعور، ولماذا لم يعد عليك أن تشعر به».

لمسَت يده.

«عليك أن تغفر لأبيك».

فكّر إيدي في السنوات التي تَلَت جنازة والده. وكيف لم يحقّق أي شيء، لم يذهب إلى أي مكان. طوال تلك السنين، ظلَّ إيدي يتخيّل حياة معيّنة -حياة «لَوْلا»- كان ليعيشها **لَوْلا** موت أبيه وما أعقبه من انهيار أمه. على مرّ السنين، ظلّ يُبجِّل الحياة الخيالية

ويُحمِّل والده المسؤولية عن الخسائر التي حاقت به: خسارة الحرية، خسارة المسار المهني، خسارة الأمل. لم يتجاوز قَطّ العملَ المتعِب القذر الذي تركه أبوه وراءه.

قال إيدي: «عندما مات، أخذ معه جزءاً منّي. لقد علقتُ بعدها».

هزّت روبي رأسها. «والدك ليس السبب في كونك لم تغادر الملاهي قَطّ».

رفع إيدي رأسه. «وما السبب إذاً؟».

ربَّتت على تنورتها لتسوّيها. عدّلت نظارتها. شرعت تمضي إلى حال سبيلها. قالت: «ما زال أمامك شخصان تقابلهما».

حاول إيدي أن يقول «انتظري»، لكنّ ريحاً باردة مزّقت الصوت في حلقه. ثم أظلم كل شيء.

رحلت روبي. وعاد هو فوق الجبل، أمام المطعم، يقف في الثلج.

ظلَّ واقفاً هناك لوقت طويل، وحيداً وسط الصمت، حتى أدرك أن المرأة العجوز لن ترجع. ثم استدار إلى الباب وفتحه ببطء. سمع صلصلة فضّيات المائدة والصحون وهي تُكدَّس. اشتمّ رائحة طبيخ طازج - خبز ولحوم وصلصات. كانت أرواح هؤلاء الذين قضوا نحبهم في الملاهي كلها في الجوار، تنخرط بعضها مع بعض، تأكل وتشرب وتتكلم.

تحرّك إيدي بخطىً متردِّدة، وقد أدرك سبب وجوده هنا. استدار إلى يمينه، إلى الكابينة في الزاوية، إلى شبح أبيه، يدخّن سيجاراً.

شعر برعشة. فكر في الرجل العجوز معلّقاً من نافذة تلك المستشفى، محتضراً وحده في منتصف الليل.

هَمَس إيدي: «بابا؟».

لم يسمعه والده. اقترب إيدي أكثر. «بابا. الآن أعرف ما حدث».

شعر بخنقة في صدره. خرَّ على ركبتَيه إلى جوار الكابينة. كان والده قريباً جدّاً حتى أن إيدي استطاع رؤية الشعيرات على وجهه وأطراف سيجاره المهترئة. رأى خطوطاً منتفخة تحت عينَيه المتعبتَين، الأنف المعقوف، الأصابع بارزة العظام، والكتفَين المربَّعتَين المميّزتَين للعامل الكادح. نظر إلى ذراعيه هو نفسه وأدرك أنه الآن، في جسده الأرضيّ، أكبر من أبيه. لقد عمَّر أكثر منه بكل طريقة كانت.

«كنتُ غاضباً منك يا بابا. كنتُ أكرهك».

شعر إيدي بالدموع تتجمّع في عينَيه. شعر برجفة في صدره. كانت الأوجاع تخرج من جسده.

«لقد ضربتَني. أخرستَني. لم أفهم. وما زلتُ لا أفهم. لماذا فعلتَ ذلك؟ لماذا؟». سحب أنفاساً طويلة مؤلمة. «لم أعرف، طيّب؟ لم أعرف حياتك، ما حدث فيها. لم **أعرفك** أنت. لكنك أبي. سأتجاوز الأمر الآن، طيّب؟ طيّب؟ هل نتجاوز الأمر؟».

راح صوته يتأرجح حتى صار عالياً ومنتحباً، لم يعد صوته. كان يصرخ: «**طيّب؟ هل تسمعني؟**». ثم برقّة أكبر: «هل تسمعني؟ بابا؟».

انحنى عليه أكثر. رأى يدَي والده المتسخَتين. قال الكلمات الأخيرة همساً.

«تمَّ الإصلاح».

دقّ إيدي على الطاولة، ثم انزلق جالساً على الأرض. عندما رفع عينيه، رأى روبي تقف هناك، شابةً وجميلةً. أحنَت رأسها، فتحَت الباب، وطارت إلى عنان سماءٍ بلون اليشم.

الثلاثاء، 11 صباحاً

من سيتكفّل بنفقات جنازة إيدي؟ ليس لديه أقارب. لم يترك وصية. ظلّت جثته في مشرحة المدينة، وكذا ملابسه ومتعلقاته الشخصيّة: قميص الصيانة، الجوارب والأحذية، الطاقية الكتّان، خاتم زواجه، السجائر وأعواد تنظيف الغليون، كلها تنتظر من يطالب بها.

في النهاية، دفع السيد بولوك، صاحب الملاهي، الفاتورة، بالنقود التي وفّرها من راتب إيدي الذي لم يعُد قابلاً للصرف. كان النعش صندوقاً خشبيّاً. واختيرت الكنيسة لمكانها -أقرب كنيسة للملاهي- إذ كان على معظم الحضور العودة إلى العمل.

قبل دقائق قليلة من القدّاس، طلب راعي الكنيسة من دومينغيز، الذي يرتدي معطفاً رياضيّاً أزرق داكناً وسرواله الجينز الأسود القديم الطيّب، أن يأتي إلى مكتبه.

سأله الراعي: «هل يمكنك أن تتحدث عن بعض خصال المتوفي الطيّبة؟ أفهم أنك عملتَ معه».

ابتلع دومينغيز ريقه. لم يكن يرتاح برفقة القساوسة. شبّك أصابعه معاً بجدّية، وكأنه يفكر في الأمر، وتحدّث برقّة كما ظنّ أن المرء يجب أن يتحدث في مثل هذه المواقف.

أخيراً قال: «إيدي، كان يحب زوجته حبّاً حقيقيّاً».

فكّ أصابعه، ثم أضاف سريعاً: «بالطبع، لم ألتقِ بها قَطّ».

رابع شخص يقابله إيدي في الجنة

طرفَ إيدي عينَيه، فوجد نفسه في غرفة دائرية صغيرة. اختفت الجبال والسماء التي بلون اليشم. رفع رأسه فكاد يرتطم بالسقف الواطئ المصنوع من الجبس. كانت الغرفة بُنّية -سادة كورق تغليف الطرود- وخالية، باستثناء كرسي خشبي بلا ظهر ومرآة بيضوية على الحائط.

تقدّم إيدي ليقف أمام المرآة. لم يكن له انعكاس. لم يرَ إلّا صورة معكوسة للغرفة، التي تمدَّدَت فجأة لتضمّ صفّاً من الأبواب. استدار إيدي.

ثم سعل.

أربكه الصوت، وكأنه آتٍ من شخص آخر. سعل ثانية، سعلةً قوية، هادرة، وكأن أشياءً تريد أن تستعيد أماكنها في صدره.

كيف جئت إلى هنا؟ فكّر إيدي. لمسَ جلده، الذي كان قد تقادم منذ التقى روبي. أصبح أكثر نحولاً الآن، وأكثر جفافاً. قِسمه الأوسط، الذي كان إبّان لقائه مع الكابتن مشدوداً مثل شريط مطّاط

مسحوبٍ من طرفَيه، صار مرتخياً ومترهّلاً، تهدُّل التقدُّم في السن.

لقد قالت له روبي: **ما زال أمامك شخصان تقابلهما**. ثم ماذا؟ شعر بألم سَمِج في أسفل ظهره. كانت ساقه المصابة تزداد تيبُّساً. أدرك ما كان يحدث، يحدث مع كل مرحلة جديدة من مراحل الجنة. كان يتحلّل.

اتجه نحو أحد الأبواب وفتحه. فجأة، وجد نفسه بالخارج، في حديقة منزل لم يرَه من قبل، في أرض لم يتعرّف إليها، وسط ما بدا أنه حفل زفاف. ضيوف يحملون صحوناً فضّية ويملأون المَرجة العشبيّة. في أحد الطرفَين ينتصب ممرٌّ مُقنطَر مغطىً بزهور حمراء وفروع بتيولا، وفي الطرف الآخر، بجوار إيدي، ينتصب الباب الذي دخل منه. كانت العروس شابة وجميلة، تقف وسط المجموعة، تخلع دبوساً من شعرها الذي له لون الزبدة. وكان العريس طويلاً نحيلاً. يرتدي سترة زفاف سوداء ويمسك سيفاً، وفي مقبض السيف خاتم. خَفَضَه باتجاه العروس وهتف الضيوف وهي تتناوله. سمع إيدي أصواتهم، لكنّ اللغة كانت أجنبية. ألمانية؟ سويدية؟

سعل ثانية. رفع الضيوف أنظارهم. بدا أن الجميع يبتسمون، أخاف هذا الابتسام إيدي. تراجع سريعاً عبر الباب الذي دخل منه، مفكّراً في العودة إلى الغرفة الدائرية. عوضاً عن ذلك، وجدَ نفسه وسط زفاف آخر، في مكان مغلَق هذه المرة، في قاعة كبيرة، حيث بدا الناس إسباناً ووضعَت العروس زهوراً صغيرة في شعرها. كانت ترقص، منتقلة من شريك إلى آخر، وكلّ ضيف يناولها كيساً صغيراً من العملات المعدنية.

سعل إيدي ثانية -لم يستطع أن يمنع نفسه- وعندما رفع عددٌ من الضيوف أنظارهم، تراجع عبر الباب ودخل مجدداً في مشهد زفاف مختلف، زفاف أفريقي، هكذا خمّن إيدي، حيث تصبُّ العائلتان النبيذ على الأرض ويُشبِّك الزوجان يديهما ويقفزان من فوق مقشة. ثم عبورٌ آخر من الباب إلى حفل صيني، حيث أُشعلت الألعاب النارية وسط تهليل الحضور، ثم بابٌ آخر إلى حفل آخر -فرنسي ربما؟- حيث يشرب الزوجان من كأس له أذنان.

إلى متى يستمرّ هذا؟ فكّر إيدي. في كل حفل، لم تكن هناك أيّ إشارة على كيفية وصول الناس إلى هناك، لا سيارات ولا حافلات، لا عربات، لا جياد. لم يبدُ أحدٌ منشغلاً بوسيلة العودة إلى داره. كان الضيوف يتجوّلون هنا وهناك، وهامَ إيدي بينهم، يبتسمون له لكنهم لا يتحدثون إليه، مثلما حدث له في حفلات الزفاف القليلة التي حضرها في حياته. كان يفضّل الأمر على ذلك النحو. كانت حفلات الزفاف، في رأي إيدي، حافلة باللحظات المحرِجة، مثل لحظة أن يُطلب من الأزواج المشاركة في رقصة ما، أو المساعدة في رفع كرسي العروس. كان يشعر أن ساقه المصابة تلتصق بالأرض في تلك اللحظات، يشعر وكأن الناس يرونه من مختلف أرجاء الغرفة.

لذلك السبب، تجنَّب إيدي معظم الحفلات، وعندما كان يذهب، يقف غالباً في ساحة انتظار السيارات، يدخّن سيجارة، منتظراً مرور الوقت. لفترة طويلة من الزمن، لم تكن هناك حفلات زفاف يحضرها، على أيّ حال. فقط في آخر سنين حياته، عندما شبَّ عددٌ من عمّال الملاهي المراهقين واتخذوا لهم أزواجاً، وجد نفسه يُخرج البدلة التي حال لونها من الدولاب ويرتدي القميص ذا

الياقة التي توخز رقبته الغليظة. في ذلك الوقت، كانت عظام ساقه المصابة قد برزت وتشوّهَت. كان التهاب المفاصل قد غزا ركبته. كان يَعرُج على نحو سيّئ ومن ثمّ كان يُعفى من كل اللحظات التي تتطلّب المشاركة، مثل الرقصات أو إشعال الشموع. كانوا ينظرون إليه بوصفه «شيخ كبير»، وحيد، منعزل، ولم يتوقع منه أحدٌ أكثر من ابتسامة عندما يأتي المصوّر إلى الطاولة.

هنا، الآن، في ملابس الصيانة، راح ينتقل من زفاف إلى التالي، من حفل إلى آخر، من لغة، وكعكة، ونوع موسيقى إلى لغة أخرى، وكعكة أخرى، ونوع موسيقى آخر. لم يتفاجأ إيدي بالتشابُه. لطالما ظنَّ أن الزفاف هنا لا يختلف كثيراً عن الزفاف هناك. ما لم يفهمه هو علاقة ذلك به هو.

اجتاز العتبة مرة أخرى ووجد نفسه فيما بدا أنه قرية إيطالية. كانت ثمة كُروم على سفوح التلال وبيوت ريفية مشيَّدة بالحجر الجيري. كان للكثير من الرجال شعرٌ أسود كثيف، مُمشَّط إلى الوراء ورَطِب، والنساء لهنّ عيون داكنة وملامح حادّة. وجد إيدي مكاناً بجوار حائط وراح يراقب العروس والعريس وهما يَقطعان قِطعة خشب نصفَين بمنشار ذي يدَين. صدحت الموسيقى -عازفو فلوت، عازفو كمان، عازفو جيتار- وبدأ الضيوف رقصة التارانتيلّا، يرقصون في إيقاع هائج دوّار. تراجع إيدي بضع خطوات إلى الخلف. زاغت عيناه إلى حافة الحشد.

كانت إحدى وصيفات العروس ترتدي فستاناً طويلاً بلون اللافندر وتعتمر قبعة مخيطة من القشّ وتتجول بين الضيوف، حاملة سلّة من اللوز المغطّى بالحلوى. من بعيد، بدا أنها في العشرينيات من عمرها.

راحت تقدّم الحلوى وتردّد: «**بير لامورو إيل دولتشي؟... بير لامورو إيل دولتشي؟...**».

لدى سماع صوتها، ارتجفَ جسد إيدي بأكمله. بدأ يتعرّق. شيءٌ قال له أن يهرب، لكن شيئاً آخر جمَّد قدميه في الأرض. اتجهَت إليه. رأته عيناها من تحت حافة القبعة، التي كانت متوَّجة بزهور من ورق الزبدة.

قالت، وهي تبتسم له وتمدّ له اللوز: «**بير لامورو إيل دولتشي؟ على الحلوة والمُرّة؟**».

انساب شعرها الداكن على إحدى عينَيها فكاد قلبُ إيدي ينفجر. استغرقَت شفتاه لحظةً لكي تفترقا، واستغرق الصوت القادم من مؤخّرة حلقه لحظةً لكي ينهض، لكنهما تضافرا في أول حرف من أول اسم جعله يشعر هذا الشعور في حياته. خرَّ على ركبتيه.

همسَ: «مارغريت...».

قالت: «على الحلوة والمُرّة».

اليوم عيد ميلاد إيدي

إيدي وشقيقه يجلسان في ورشة الصيانة.

يقول جو بفخر، وهو يرفع مثقاباً كهربائياً: «هذا أحدث طراز».

جو يرتدي سترة رياضية منقوشة بالمُربّعات وحذاءً جلدياً أبيض في أسود. يعتقد إيدي أن شقيقه يبدو متأنّقاً بشكل مبالغ فيه -متأنّق بمعنى زائف- لكنّ جو، الآن، بائعٌ جوّال لحساب شركة أدوات ومعدات وإيدي ظلّ يرتدي الزيّ نفسه لسنوات، إذاً ماذا يعرف هو؟

يقول جو: «نعم يا سيدي، وخُذ هذا. يعمل بالبطارية».

يمسك إيدي البطارية بين أصابعه، شيء صغير يسمّى «نيكل كادميوم». أمرٌ يصعب تصديقه.

يقول جو، وهو يناوله المثقاب: «شغّله».

يضغط إيدي على الزناد. يطقطقُ في صخب.

يصيح جو: «لطيف، هِه؟».

ذلك الصباح، كان جو قد أخبر إيدي بمُرتّبه الجديد. ثلاثة أضعاف ما يتقاضاه إيدي. ثم هنأ إيدي على الترقية التي نالها: رئيس الصيانة في روبي بير، المنصب القديم الذي شغله والده. شعر إيدي برغبة أن يجيبه: «إذا كان عظيماً هكذا، لماذا لا تأخذه،

وسآخذ أنا وظيفتك؟». لكنه لم يفعل. إيدي لا يُفصح قَطّ عن مشاعره عندما تكون بهذه القوة.

«مرحباً؟ يا أهل الدار؟».

مارغريت بالباب، تمسك بكرة من التذاكر البرتقالية. تتجه عينا إيدي، كما الحال دائماً، إلى وجهها، بشرتها الزيتونية، عينَيها الداكنتين بلون القهوة. كانت قد تسلَّمَت وظيفة في أكشاك التذاكر هذا الصيف وترتدي الزي الرسمي الخاص بروبي بير: قميصاً أبيض، صدريّة حمراء، سروالاً ضيّقاً، بيريه حمراء، واسمها على مَشْبك تحت عظمة الترقوة. منظرها يثير غضب إيدي - خاصة في وجود أخيه المتأنّق.

يقول جو: «فرِّجها على المثقاب». يستدير إلى مارغريت. «إنه يعمل بالبطارية».

يضغط إيدي الزناد. تسدّ مارغريت أذنيها.

تقول: «إنه أعلى من شخيرك».

يصيح جو، ضاحكاً: «واوو. واووو! لقد نالت منكَ!».

ينكّس إيدي رأسه بخجل، ثم يرى زوجته تبتسم.

تقول: «هل يمكن أن تأتي إلى الخارج؟».

يلوّح إيدي بالمثقاب: «أنا أعمل هنا».

«دقيقة واحدة، طيّب؟».

ينهض إيدي ببطء، ثم يتبعها خارج الباب. تضرب الشمس وجهه.

«سنة حلوة يا سيّد إيدي»، يصيح مجموعة من الأطفال في صوت واحد.

«لقد فاجأتموني».

تصيح مارغريت: «طيّب يا أولاد، ضعوا الشموع في الكعكة!».

يتسارع الأطفال إلى كعكة فانيليا كبيرة مستطيلة موضوعة على طاولة قريبة من تلك الطاولات القابلة للطيّ. تميل مارغريت على إيدي وتهمس: «وعدتُهم أنك ستطفئ الثمانية وثلاثين مرة واحدة».

ينخُر إيدي. يراقب زوجته وهي تنظّم المجموعة. كعادة مارغريت مع الأطفال، يتحسَّن مزاجه عندما يرى السهولة التي تتواصل بها معهم ويخمُد عندما يرى عدم قدرتها على تحمُّلهم. أحد الأطباء قال إنها متوترة جدّاً، وآخر قال إنها ظلّت تنتظر طويلاً جدّاً، كان يُفترض أن تحصل على طفل في سنّ الخامسة والعشرين. مع الوقت، لم تتبقَّ معهما نقود لإنفاقها على الأطباء. لقد كان ما كان.

لما يقرب من سنة الآن، ظلّت تتكلم عن التبنّي. ذهبَت إلى المكتبة. عادت إلى البيت بأوراق. قال إيدي إنهم كبروا كثيراً. قالت: «من يكبرُ على الأطفال؟».

قال إيدي إنه سيفكر في الأمر.

تصيح الآن من عند الكعكة: «طيّب. تعال يا سيّد إيدي! اطفئ الشمع. أوه، انتظر، انتظر...». تبحث في حقيبة وتُخرج كاميرا، بدعة معقّدة لها قضبان وأشرطة وفلاشٌ مدوَّر.

«شارلين سمحَت لي باستخدامها. إنها كاميرا بولارويد».

أوقفت مارغريت الحضور لالتقاط الصورة، إيدي فوق الكعكة، والأطفال مضغوطون من حوله، مفتونون بالثمانية وثلاثين

لهباً صغيراً. ينكز أحد الأولاد إيدي ويقول: «اطفئها جميعاً مرة واحدة، طيّب؟».

ينظر إيدي إلى أسفل. كريمة الزينة في حالة مُزرية، مليئة بآثار أيادٍ صغيرة لا تُحصى.

«سأطفئها جميعها»، يقولها إيدي، لكنه ينظر إلى زوجته.

حدَّق إيدي في مارغريت الشابة.

قال: «هذه ليست أنتِ».

خفضت سلّة اللوز. ابتسمت بحزن. كان الحضور يرقصون التارنتيلّا وراءهما والشمس تحتجب خلف شريط من السحاب الأبيض.

قال مجدَّداً: «هذه ليست أنتِ».

صاح الراقصون: «هووهااي!». ضربوا على الرقوق.

قدَّمَت له يدها. أمسك إيدي بها بسرعة، غريزيّاً، وكأنه يمسك بغرضٍ قبل أن يَسقط. التقت أصابعهما فخامره إحساس لم يشعر به من قبل، وكأن لحماً يتكوّن فوق لحمه، ناعماً ودافئاً ومدغدِغاً تقريباً. جلست على ركبتيها إلى جواره.

قال: «هذه ليست أنتِ».

همسَت: «إنها أنا».

هووهااي!

«هذه ليست أنتِ. ليست أنتِ. ليست أنتِ»، دمدم إيدي، وهو يُسقط رأسه على كتفها و، للمرة الأولى منذ وفاته، شرع يبكي.

أقيم زفافهما عشيّة الكريسماس في الطابق الثاني من مطعم صيني معتم اسمه سامي هونغ. وافق صاحب المطعم، سامي، أن

يؤجّره لتلك الليلة، مقدِّراً أن ذلك سيجلب له بعض النقود الإضافية. أخذ إيدي ما تبقّى من نقود الجيش وأنفقها على الحفل - دجاج محمَّر وخضروات صينية ونبيذ بورت ورجل يعزف على الأكورديون. كان المطعم بحاجة إلى كراسي الحفل، لذا فور أن قُطعت العهود، طَلب النُّدُل من الضيوف أن ينهضوا، ثم حملوا الكراسي إلى الطابق السفلي حيث الطاولات. جلس عازف الأكورديون على كرسي صغير بلا ظهر. بعدها بسنوات، سوف تمزح مارغريت قائلة إن الشيء الوحيد الذي كان ينقص زفافهما هو توزيع بطاقات الـ«بِنْجو» على الضيوف.

عندما انتهت الوليمة وقُدِّمت الهدايا الصغيرة، رُفع نخبٌ أخير ووَضَع عازف الأكورديون آلته في حقيبتها. غادر إيدي ومارغريت من الباب الأمامي. كانت تُمطر مطراً خفيفاً، مطراً بارداً، لكن العروس والعريس سارا معاً إلى البيت، باعتبار أنه لا يبعد إلّا بضعَ نواصٍ. كانت مارغريت ترتدي فستان زفافها تحت كنزة ورديّة سميكة. وإيدي يرتدي سترته البيضاء، والقميص يوخِز رقبته. شبَّكا يديهما، سارا وسط بُركات من ضوء المصابيح. كل شيء حولهما بدا مُحكم الإغلاق.

يقول الناس إنهم «يجدون» الحب، وكأنه غرضٌ مخفيٌّ تحت حَجَر. لكنّ الحب يأخذ أشكالاً عديدة، ولا يكون على حال واحد مع أيّ رجل وامرأة. ما يجده الناس إذاً هو حبٌّ معيّن. وقد وجد إيدي حبّاً معيّناً مع مارغريت، حبّاً هانئاً، حبّاً عميقاً لكنه هادئٌ، حبّاً عَرف، في المقام الأول، أنه لا يمكن استبداله. فور أن رحلَت، ترك الأيام تمرُّ ببلادة. أخلَدَ قلبَه للنوم.

الآن، ها هي مرة أخرى، شابة كما كانت يوم زفافهما.

قالت: «امشِ معي».

حاول إيدي الوقوف، لكنّ ركبته المصابة التَوَت. رفعته مارغريت بلا جُهد.

«ساقُك»، قالتها وهي تنظر إلى الندبة الباهتة بألفة رقيقة. ثم رفعت رأسها ولمست خُصلتي الشعر فوق أذنيه.

قالت، مبتسمة: «إنه أبيض».

لم يستطع إيدي تحريك لسانه. لم يسعه إلّا التحديق. كانت كما يتذكرها بالضبط - أجمل، في الحقيقة، إذ كانت آخر ذكرياته عنها تراها امرأة أكبر سنّاً، مثقلة بالهموم. وقف إلى جوارها، صامتاً، حتى ضاقت عيناها الداكنتان والتَوَت شفتاها بشقاوة.

كانت تكاد تقهقه. «إيدي! هل نسيتَ كيف كنت أبدو بهذه السرعة؟».

ابتلع إيدي ريقه. «لم أنسَ أبداً».

لمست وجهه بخفّة فانتشر الدفء في جسده. أشارت إلى القرية وإلى الضيوف الراقصين.

قالت، بسعادة: «حفلات زفاف في كل مكان. هذا كان اختياري. عالمٌ من حفلات الزفاف، خلف كل باب. أوه، يا إيدي، إنها لا تتغيّر أبداً، عندما يرفع العريس الحجاب، عندما تَقبّل العروس الخاتم، الإمكانات التي تراها في أعينهما، كلها متشابهة في أرجاء العالم. إنهم يؤمنون حقّاً أن حبهم وزواجهم سيحطّم كل الأرقام القياسية».

ابتسمَت: «هل تظن أننا كنا كذلك؟».

لم يعرف إيدي كيف يجيب.

قال: «كان لدينا عازف أكورديون».

خرجا من الحفل وسارا في طريق معبَّد بالحصى. خَبَت الموسيقى إلى أصواتٍ في الخلفية. أراد إيدي أن يخبرها بكل ما رآه، كل ما حدث. أراد أن يسألها عن كل شيء صغير وكل شيء كبير أيضاً. شعر بشيء يمخُض داخله، قلقٌ ينبُض. لم يعرف من أين يبدأ.

أخيراً قال: «هل حدث لك الشيء نفسه أنتِ أيضاً؟ هل قابلتِ خمسة أشخاص؟».

أومأت برأسها.

قال: «خمسة أشخاص مختلفون عن أشخاصي».

أومأت برأسها ثانية.

«وشرحوا لك كل شيء؟ وصنع ذلك فارقاً؟».

ابتسمت. «فارقاً عظيماً». لمسَت ذقنه. «ثم انتظرتُك».

تفحّص عينيها. ابتسامتها. تساءل إن كان انتظارُها مثل انتظاره.

«ماذا تعرفين... عني؟ أقصد، ماذا تعرفين منذ...».

لا يزال يجدُ صعوبة في نطقها.

«منذ وفاتك».

خلعَت قبعة القش وأزاحت الخصلات اليافعة الكثيفة بعيداً عن جبينها. «طيّب، أعرف كل ما حدث عندما كنا معاً...».

زمَّت شفتيها.

«والآن أعرف لماذا حدث...».

وضعَت يديها على صدرها.

«وأعرف أيضاً... كم أحببتني».

عندها، أمسكَت بيده الأخرى. شعر بالدفء الحنون.

قالت: «لا أعرف كيف لقيتَ حتفك».

فكر إيدي للحظة.

قال: «لستُ متأكداً. كانت هناك فتاة، فتاة صغيرة، شردَت ودخلَت تلك اللعبة، وكانت في مشكلة...».

اتسعت نظرة مارغريت. بدت شابة يافعة. كان ذلك أصعب مما قدَّر إيدي، إخبارُ زوجته بيوم مصرعه.

«لديهم تلك الألعاب، تعرفين، تلك الألعاب الجديدة، لا تُشبه ما كان لدينا - كل لعبة يجب أن تنطلق بسرعة ألف ميل في الساعة الآن. على أي حال، في هذه اللعبة، تَسقط العربات، ويُفترض أن يوقفها النظام الهيدروليكي، أن يُنزلها ببطء، لكنّ شيئاً يقطع السلك، وتنفلِت العربة، ما زلتُ لا أفهم، لكن العربة سقطت لأنني قلت لهم أن يحرّروها - أقصد، قلت لدُوم، إنه ذلك الفتى الذي يعمل معي الآن -لم يكن خطأهُ- لكنني قلت له ثم حاولتُ أن أوقفه، لكنه لم يسمعني، وهذه الفتاة الصغيرة كانت تجلس هناك، وحاولتُ أن أصل إليها. حاولتُ أن أنقذها. شعرتُ بيدين صغيرتين، لكن عندها...».

توقَّف. أمالت رأسها، تشجّعه على الاستمرار. تنهَّد بعمق.

قال: «لم أتحدث كثيراً هكذا منذ وصولي إلى هنا».

أومأت برأسها وابتسمت، ابتسامة رقيقة، ولدى رؤيتها، بدأت عيناه تترقرقان بالدموع واجتاحته موجة حزن وفجأة، دون مقدمات، لم يعد أيٌّ من هذا يهم، لا شيء يهم في موته أو الملاهي أو الحشد الذي صرخ فيه: «تراجعوا!». لماذا يتكلم عن ذلك؟ ما الذي يفعله؟

أهو **معها** حقّاً؟ مثل حزن دفين ينهض ليقبض على القلب، أحس روحه عالقة بمشاعر قديمة، وبدأت شفتاه ترتعشان واكتسحه تيارٌ من كل الأشياء التي فقدها. كان ينظر إلى زوجته، زوجته الميّتة، زوجته الشابة، زوجته الغائبة، زوجته الوحيدة، ولم يرغب في إبعاد نظره عنها.

همس قائلاً: «يا ربّي، مارغريت. أنا آسف. أنا آسف. لا أستطيع أن أقول. لا أستطيع أن أقول. لا أستطيع أن أقول».

أسقط رأسه بين يديه وقالها بأي حال، قال ما يقوله الجميع.

«اشتقتُ إليك جدّاً».

اليوم عيد ميلاد إيدي

حلبة السباق مزدحمة بزبائن الصيف. النساء يرتدين قبعات شمسيّة من القش والرجال يدخّنون السيجار. إيدي ونويل يغادران العمل مبكّراً للمراهنة على رقم عيد ميلاد إيدي، 39، في مسابقة «السباق اليومي المزدوج». يجلسان على كراسٍ قابلة للطيّ مصنوعة من ألواح خشبية. عند أقدامهما كأسان ورقيّان من البيرة، وسط بساط من التذاكر التي ألقاها أصحابها على الأرض.

في وقت سابق، فاز إيدي بأول سباقات اليوم. ثم راهن بنصف مكسبه على السباق الثاني وربح أيضاً، وكانت تلك أول مرة يحدث له شيء كهذا. كسب 209 دولارات. وبعد أن خسر مرتين في رهانات أصغر، راهن بكل ما تبقّى على حصانٍ بعينه لكي يربح في السباق السادس لأنه، كما اتفق هو ونويل، في منطقٍ نشوان، وصل وليس معه شيء تقريباً، فأي ضرر يقع إذا رجع بلا شيء؟

الآن، يقول نويل: «فقط فكّر، إذا ربحتَ، سيكون معك كل المال اللازم للطفل».

تقرع الأجراس. تنطلق الجياد. تتجمع معاً على المسار الطوليّ البعيد، أقمصتها الملونة تَتَشوّش مع ركضها الوعِر. راهن إيدي على رقم 8، حصان اسمه جيرسي فينش، وهو ليس رهاناً سيّئاً، ليس على نسبة أربعة إلى واحد، لكن ما قاله نويل لتوّه عن

«الطفل» -الطفل الذي يُخطط إيدي ومارغريت لتبنّيه- يغمره بالذنب. كان بإمكانهما استغلال تلك النقود. لماذا يتصرّف هكذا؟

يقف الجمهور على أقدامهم. تركض الجياد على الامتداد الختامي المستقيم. يركض جيرسي فينش في الجهة الخارجية ويطلق سيقانه للريح. يختلط الهتاف بالحوافر الهادرة. يُهلّل نويل. يعصر إيدي تذكرته. إنه أكثر توتراً ممّا أراد. يقشعرّ جلده. أحد الجياد يتقدّم مفارقاً المجموعة.

جيرسي فينش!

الآن إيدي معه حوالي 800 دولار.

يقول: «يجب أن أتصل بالمنزل».

يقول نويل: «ستُفسد الأمر».

«عمَّ تتكلم؟».

«إذا أخبرتَ أي شخص، ستُفسد حظك».

«أنت مجنون».

«لا تفعل ذلك».

«سأتصل بها. سأسعدها».

«هذا لن يسعدها».

يسير بمَرْجته إلى هاتف عمومي، ويسقط عملة فئة خمس سنتات. تجيب مارغريت. يزفّ إيدي إليها الخبر. نويل محقّ. إنها ليست سعيدة. تقول له أن يرجع. يقول لها أن تكفّ عن إخباره بما يفعله.

توبّخه: «لدينا طفل آتٍ في الطريق. لا يمكن أن تتصرف هكذا».

يُغلق إيدي الخط وهو يشعر بسخونة خلف أذنيه. يرجع إلى نويل، الذي يأكل حبوب الفول السوداني بجوار الدرابزين.

يقول نويل: «دعني أخمّن».

يذهبان إلى الشبّاك ويختاران حصاناً آخر. يخرج إيدي النقود من جيبه. نصفُه لم يعد يريدها والنصف الآخر يريد ضِعفها، حتى يستطيع أن يرميها على السرير عندما يرجع إلى البيت ويقول لزوجته: «هاكِ، اشتري ما تريدين، طيّب؟».

يراقبه نويل وهو يدفع الأوراق النقدية من فتحة الشبّاك. يرفع حاجبيه.

يقول إيدي: «أعرف. أعرف».

ما لا يعرفه هو أن مارغريت، العاجزة عن معاودة مهاتفته، قرّرت أن تتوجّه بسيارتها إلى الحلبة وتبحث عنه. تشعر باستياء لأنها صرخت، خاصة أنه عيد ميلاده، وتريد أن تعتذر؛ كذلك تريده أن يتوقف. تعرف من الأمسيات السابقة أن نويل سيصرّ على بقائهما حتى آخر سباق - نويل هكذا. ولأن الحلبة لا تبعد إلّا عشر دقائق، تأخذ حقيبة يدها وتقود سيارتهما الناش رامبلر المستعملة في جادة أوشن باركواي. تنعطف يميناً في شارع ليستر. الشمس غابت والسماء في تبدُّل وتحوُّل. معظم السيارات تأتي من الاتجاه الآخر. تقترب من جسر المشاة على شارع ليستر، الذي كان يستخدمه الزبائن للوصول إلى الحلبة، صعوداً على الدرج، فوق الشارع، ثم نزولاً على الدرج ثانية، إلى أن دَفَع أصحاب الحلبة مالاً للمدينة من أجل وضع إشارة ضوئية، ما ترك جسر المشاة، في أغلب الأحيان، مهجوراً.

لكنه لم يكن مهجوراً في تلك الليلة. كان يحمل اثنين من

المراهقين يريدان الابتعاد عن الأنظار، ولدين في السابعة عشرة من عمرهما كانا، قبل ساعات، قد طوردا من متجرٍ للمشروبات الكحولية بعد أن سرقا خمس علب سجائر وثلاث باينتات من ويسكي أولد هاربر. الآن، بعد أن أتيا على الشراب ودخّنا كثيراً من السجائر، كانا يشعران بالملل من المساء، يدلّيان زجاجاتهما الفارغة فوق حافة الدرابزين الصدئ.

يقول أحدهما: «تتحداني؟».

يقول الآخر: «أتحداك».

يترك الأول الزجاجة تسقط ويغطسان وراء القضبان الشبكية المعدنية ليتفرّجا. بالكاد تُخطئ سيارةً وتتهشم على الرصيف.

يصرخ الثاني: «ووووه! هل رأيتَ ذلك!».

«الآن ارمِ زجاجتك يا خوَّاف».

يقف الثاني، يمد يده بالزجاجة، ويختار الحركة الخفيفة على الحارةِ اليمنى. يؤرجح الزجاجة إلى الخلف والأمام، محاولاً أن يضبط سقوطها لتسقط بين العربات، وكأن هذا فنٌّ وهو فنّان.

يُفلت أصابعه. يكاد يبتسم.

تحتهما بنحو اثني عشر متراً، لا تفكر مارغريت في النظر إلى أعلى، لا تفكر أن شيئاً قد يحدث فوق جسر المشاة ذلك، لا تفكر في أي شيء سوى إخراج إيدي من تلك الحلبة قبل أن يخسر كل نقوده. تتساءل أي قِسم من المدرّجات تبحث فيه، حتى وزجاجة ويسكي أولد هاربر تُهشّم زجاجها الأمامي إلى نِثار من الشظايا المتطايرة. تنحرف سيارتها مصطدمة بالحاجز الأسمنتي الفاصل بين اتجاهَي المرور. يرتمي جسدها مثل دمية، تخبط في الباب وفي

لوحة العدادات وفي عجلة القيادة، يتهتّك كبدها وينكسر ذراعها ويرتطم رأسها بقوة وتفقد الإحساس بأصوات المساء. لا تسمع صرير السيارات. لا تسمع ضرب الأبواق. لا تسمع الأحذية الرياضية ذات النعال المطاطية وهي تتراجع، تعدو نازلة من جسر مشاة شارع ليستر، وتختفي وسط الليل.

الحبّ مثل المطر، يمكن أن يَسقي من أعلى، يَغمُر العشاق بفرحة فيّاضة. لكنْ أحياناً، وسط سخونة الحياة الغاضبة، يجفّ الحب من السطح، فيحتاج إلى ريٍّ من أسفل، إلى رعاية جذوره، إلى إبقائه حيّاً.

دخلت مارغريت المستشفى على إثر حادثة شارع ليستر. حُجزت في السرير لنحو ستة أشهر. في نهاية المطاف تعافى كبدها الجريح، لكنّ النفقات والتأخُّر أضاعا عليهما التبنّي. الطفل الذي كانا ينتظرانه ذهب إلى أُسرة أخرى. لم يجد اللوم الصامت على هذا مُستراحاً قَطّ - بل ظلّ يتحرك ببساطة مثل ظِلّ، من الزوج إلى الزوجة. لاذت مارغريت بالصمت لفترة طويلة. وأغرق إيدي نفسه في العمل. كان الظِلّ يتخذ مكانه على طاولتهما فيأكلان في وجوده، وسط الجلجلة الوحدانيّة للشوكات والأطباق. عندما كانا يتحدثان، يتحدثان عن أشياء صغيرة. كان ماء حبهما مخبأ تحت الجذور. لم يراهن إيدي في سباقات الجياد بعد ذلك. وانقطعت زياراته مع نويل تدريجيّاً، بعد أن عجزا عن الكلام على الإفطار، بعد أن أصبحت كل الموضوعات ثقيلة على القلب.

أعلنت حديقة ملاهٍ في كاليفورنيا عن أول سكّة حديدية مقوَّسة -تلتوي في زوايا حادة لا يمكن تحقيقها مع الخشب-، وفجأة عاد

القطار الأفعواني، الذي كاد يطويه النسيان، موضةً رائجة من جديد. كان السيد بولوك، صاحب الملاهي، قد طلب نموذج سكّة حديدية لأجل روبي بير، وأشرف إيدي على البناء. كان يصرخ في عمّال التثبيت، يُراقب كل حركة من حركاتهم. لم يثق في أي شيء ينطلق بهذه السرعة. زوايا ستون درجة؟ كان متأكّداً أن شخصاً سيصاب بأذى. على أي حال، منحه ذلك نوعاً من الإلهاء.

هُدم «مسرح غبار النجوم». وكذا «السحّاب الدوّار». و«نفق الحب»، الذي وجده الأطفال الآن تافهاً وسخيفاً. بعد بضع سنوات، شُيّدت لعبة ركوب جديدة اسمها «زُحليقة الجذوع الخشبية» و، لدهشة إيدي، نالت شعبية هائلة. كان الركّاب ينزلقون بالقوارب عبر قنوات من الماء ويسقطون، في النهاية، داخل بركة كبيرة تثير الرشّاش. لم يفهم إيدي لماذا يحب الناس البلل إلى هذا الحدّ، بينما المحيط على بُعد ثلاثمئة متر لا أكثر. لكنه صانها على النحو نفسه، يعمل حافياً في الماء، يتأكد من ثبات القوارب على القضبان.

مع الوقت، بدأ الزوج والزوجة يتكلمان من جديد، وذات ليلة، تكلّم إيدي حتّى عن التبنّي. حكّت مارغريت جبينها وقالت: «لقد كبرنا كثيراً الآن».

قال إيدي: «من يكبر على الأطفال؟».

مرّت الأعوام، لم يأتِ الطفل، لكنّ جرحهما تعافى ببطء، وارتفت رفقتهما لتملأ المكان الذي كانا يوفّرانه لشخص آخر. في الصباحات، كانت تُعدّ له الخبز المحمّص والقهوة، ويوصلها هو بالسيارة إلى المغسلة ثم يعود إلى الملاهي. أحياناً، في الأصائل، كانت تخرج مبكّراً وتسير معه على الممشى، تصحبه في جولاته،

تركب الخيول الدوّارة أو أصداف المحار المطليّة بالأصفر بينما يشرح لها إيدي طريقة عمل المحاور الدوّارة والأسلاك ويُنصت لطنين المحركات.

ذات مساء من يوليو، وجدا نفسيهما يسيران بجوار المحيط، يأكلان مصّاصات مثلّجة بنكهة العنب، أقدامهما الحافية تغوص في الرمل الرطب. جالا ببصريهما وأدركا أنهما الأكبر سنّاً بين المصطافين.

قالت مارغريت شيئاً عن ثياب السباحة التي ترتديها البنات وكيف أنها لن تجرؤ أبداً على ارتداء شيء كهذا. قال إيدي إن ذلك من حظّ البنات، لأنها لو فعَلَت لما نظر الرجال إلى أي واحدة غيرها. ومع أن مارغريت كانت وقتها في منتصف الأربعينيات وقد اكتنز وِركاها وتَشكّلت شبكة من الخطوط الصغيرة حول عينيها، فقد شكرت إيدي بامتنان ونظرت إلى أنفه المعقوف وفكّه العريض. انهمرت مياه حبهما ثانية من أعلى وبللتهما مثل البحر الذي يتجمّع عند أقدامهما.

بعدها بثلاث سنوات، كانت تغطّي شرائح الدجاج بالبقسماط في مطبخ شقتهما، تلك التي ظلّا فيها طوال تلك السنين، بعد وقت طويل من وفاة والدة إيدي، لأن مارغريت قالت إنها تذكّرها بالزمن الذي كانا فيه يافعَين، وإنها تحب رؤية لعبة الخيول الدوّارة القديمة من النافذة. فجأة، من دون تحذير، انفتحَت أصابع يديها رغماً عنها. تحرّكَت إلى الخلف. ولم تستطع إغلاقها. انزلقَت شريحة الدجاج من كفّها. سقطت في الحوض. شعرت بنبضٍ في ذراعها. تسارعَت أنفاسها. حدَّقت للحظة في هذه اليد ذات الأصابع

المتخشّبة التي بدت أنها تنتمي إلى شخص آخر، شخص يحاول القبض على برطمان كبير غير مرئي.

ثم غام كل شيء.

نادته: «إيدي». لكن عند وصوله، وجدها ساقطة على الأرض، غائبة عن الوعي.

كان ورمٌ في المخ، كما سيكتشفون لاحقاً، وسوف تتدهور حالتها ببطء مثل الكثيرين غيرها: علاجات تجعل المرض يبدو خفيفاً، شعرٌ يتساقط في رُقَع، صباحات تُقضى مع ماكينات إشعاع صاخبة ومساءات تُقضى في التقيؤ في حمّام المستشفى.

في الأيام الأخيرة، عندما انتصر السرطان، اكتفى الأطباء بالقول: «استريحي. هوّني على نفسك». عندما طَرَحت أسئلة، أومأوا برؤوسهم في تعاطف، وكأن إيماءاتهم دواءٌ يوزَّع بقطّارة. أدركَت أن ذلك «بروتوكول»، طريقتهم في إظهار اللطف في مواجهة عجزهم، وعندما اقترح أحدهم: «رتّبي أمورك»، طلبَت أن يُخرجها من المستشفى. لقد أُجيبَت بأكثر ممّا سألت.

ساعدها إيدي على صعود الدرج وعَلّق معطفها وهي تجيل بصرها في الشقة. أرادت أن تطبخ شيئاً لكنه جعلها تجلس، وسخّن بعض الماء لإعداد الشاي. كان قد اشترى قطعاً من اللحم في اليوم السابق، وتلك الليلة راح يجهّز العشاء على نحو أخرق مع عدد من الأصدقاء وزملاء العمل المدعوّين، معظمهم حيًّا مارغريت ببشرتها الشاحبة بعبارات من قبيل: «طيّب، انظروا من الذي رجع!»، وكأنها حفلة استقبال لا حفلة وداع.

أكلوا بطاطس مهروسة من أطباقٍ مصنوعة من السيراميك

الزجاجي، وتناولوا كعكة الزبدة في التحلية، وعندما أنهت مارغريت كأساً ثانياً من النبيذ، أمسك إيدي بالزجاجة، وصبّ لها ثالثاً.

بعدها بيومين، استيقظَت صارخة. أقلّها إلى المستشفى في صمت ما قبل الفجر، تحدثا في جُملٍ قصيرة، مَن مِن الأطباء سيكون موجوداً، مَن يجب على إيدي الاتصال به؟ ومع أنها كانت تجلس في المقعد المجاور له، شعر إيدي بها في كل شيء، في عجلة القيادة، في دواسة البنزين، في عينيه الطارفتيْن، في حلقه المتنَحنِح. كل خَلَجة من خَلَجاته كانت محاولة للتشبُّث بها.

كانت في السابعة والأربعين.

سألته: «معك البطاقة؟».

قال شارداً: «البطاقة...».

سحبت نفساً عميقاً وأغمضت عينيها، وأصبح صوتها أوهَنَ عندما أكملت كلامها، وكأن التنفُّس كلفها الكثير.

قالت بصوت متحشرج: «التأمين».

قال بسرعة: «نعم، نعم. معي البطاقة».

أوقفا السيارة في ساحة الانتظار وأطفأ إيدي المحرّك. صار الجو فجأة ساكناً جدّاً وهادئاً جدّاً. سَمِع كل صوت ضئيل، صرير جسده على المقعد الجلدي، تكّة مقبض الباب، هبوب الهواء في الخارج، قدميه على الرصيف، صلصلة مفاتيحه.

فتح بابها وساعدها على الخروج. كان كتفاها منكمشَين بالقرب من فكّيها، مثل طفل متجمّد من البرد. طار شعرها على وجهها. تنشَّقَت ورفعَت عينَيها إلى الأفق. أشارت إلى إيدي وأومأت باتجاه قمة لعبة ملاهٍ كبيرة بعيدة، بعربات حمراء معلَّقة مثل زينة على شجرة.

قالت: «تستطيع أن تراها من هنا».

قال: «الساقية العملاقة؟».

أشاحت ببصرها. «دارنا».

لأن إيدي لم ينم في الجنة، شعر أنه لم يقضِ إلّا بضع ساعات مع أيٍّ ممّن قابلهم. لكنْ، من دون ليلٍ أو نهار، من دون نوم أو استيقاظ، من دون غروب أو مدٍّ عالٍ أو وجبات أو جداول زمنية، كيف كان له أن يعرفه؟

مع مارغريت، لم يرغب إلّا في زمن -المزيد والمزيد من الزمن- وقد وُهب زمناً، لياليَ وأياماً ولياليَ ثانية. اجتازا أبواباً إلى حفلات زفاف متنوعة، وتحدّثا عن كل شيء أراد أن يتحدّث عنه. في حفل سويديّ، أخبرها إيدي بأمر شقيقه، جو، الذي توفي قبل عشر سنوات إثر أزمة قلبية، بعد شهر واحد من شراء شقة جديدة في فلوريدا. في حفل روسيّ، سألته إن كان قد أبقى على الشقة القديمة، وقال إنه فعل، وقالت إنها سعيدة لذلك. وفي حفل في الهواء الطلق في قرية لبنانية، تحدّث عمّا حدث له هنا في السماء، وبدا أنها تنصت وتعرف في الوقت نفسه. تحدّث عن الرجل الأزرق وقِصّته، ولماذا يموت البعض ويعيش آخرون، وتحدّث عن الكابتن وحكاية التضحية. عندما تحدّث عن والده، تذكرت مارغريت الليالي العديدة التي قضاها يتميَّزُ غضباً من ذلك الرجل، محتاراً من صمته. أخبرها إيدي أنه سوّى كل الحسابات، وارتفع حاجباها وافترقت شفتاها وشعر إيدي بشعور دافئ قديم افتقده منذ سنوات، الفِعلُ البسيط المتمثّل في إسعاد زوجته.

ذات ليلة، تحدّث إيدي عن التغييرات التي أُدخلت على روبي بير، وكيف هُدمت الألعاب القديمة، كيف استُبدلت موسيقى الصافرات الطفولية في صالة الألعاب، وحلّت محلها موسيقى الروك آند رول، وكيف صار القطار الأفعواني، الآن، يمضي في حركات لولبيّة وعرباته معلّقة من أسفل القضبان، وكيف أن «ألعاب الظلام»، التي كانت فيما مضى تعني فقط صوراً مصنوعة من ألواح الخشب مستوحاة من عالم رعاة البقر ومطليّة بطلاء متوهّج، أصبحت الآن تعجّ بشاشات الفيديو، مثل مشاهدة التلفزيون طوال الوقت.

أخبرها بالأسماء الجديدة. اختفت أسماء «الغطّاسة» و«الخنفساء المُتشقلِبة». كل شيء أصبح «العاصفة الثلجية»، «خالبة الألباب»، «عربة الرعب»، «الدوّامة».

قال إيدي: «تبدو أسماء غريبة، أليست كذلك؟».

قالت متأسّية: «تبدو مثل صيفٍ شخص آخر».

أدرك إيدي أن ذلك كان تحديداً ما ظلّ يشعر به لسنوات.

أخبرها: «كان يجدر بي العمل في مكان آخر. أنا آسف لأنني لم أخرج من هناك طوال حياتي. بابا. ساقِي. لطالما شعرت أنني تافه بلا قيمة بعد الحرب».

رأى حزناً يمرُّ على وجهها.

سألته: «ماذا حدث؟ أثناء تلك الحرب؟».

لم يكن قد حكى لها بالضبط. كان كل شيء مفهوماً. كان الجنود، في أيامه، يفعلون ما عليهم فعله ولا يتحدّثون عنه بعد عودتهم إلى الديار. فكّر في الرجال الذين قتلهم. فكّر في الحرّاس. فكّر في يديه الملطّختَين بالدماء. تساءل إن كان سينال الغفران بعد كل ذلك.

قال: «لقد فقدتُ نفسي».

قالت زوجته: «لا».

همس: «نعم»، ولم تتفوّه هي بأي شيء آخر.

في بعض الأوقات، هناك في الجنة، كانا يرقدان متجاورَين. لكنهما لا ينامان. قالت مارغريت إنك عندما تروح في النوم، في الحياة الدنيا، تحلم أحياناً بجنّتك وإن تلك الأحلام تساعد في تشكيلها. لكنْ الآن، لم تعد لهذا النوع من الأحلام فائدة. عوضاً عن ذلك، أمسك إيدي بكتفَيها ومرَّغ وجهه في شعرها وسحب أنفاساً عميقة طويلة. عند لحظة ما، سأل زوجته إن كان الربّ يعرف أنه هنا. ابتسمت وقالت: «بالطبع»، حتى بعد أن اعترف إيدي أنه قضى شطراً من حياته يختبئ من الربّ، والشطر الآخر معتقداً أنه نجح في الاختباء منه.

الدرس الرابع

أخيراً، بعد العديد من المحادثات، أدخلت مارغريت إيدي من باب آخر، أعادهما إلى الغرفة المستديرة الصغيرة. جلست على الكرسي الذي بلا ظهر وضمَّت أصابعها. استدارت إلى المرآة، ولاحظَ إيدي انعكاس صورتها. صورتها هي، لكن ليس هو.

«العروس تنتظر هنا»، قالتها وهي تمرّر يديها في شعرها، وتنظر مليّاً في صورتها إنما في شرود واضح. «تجلس هنا وتفكّر فيما تفعله. مَن تختار. مَن تحب. إذا كان خيارك صحيحاً يا إيدي، ستكون لحظةً رائعة».

استدارت إليه.

«لقد اضطررتَ إلى البقاء بلا حب لأعوام طويلة، أليس كذلك؟».

ظلّ إيدي صامتاً.

«شعرتَ أن الحب اختُطف من بين يديك. أنني تركتُك قبل الأوان».

انحنى ببطء. كان فستانها الأرجواني مفروداً أمامه.

قال: «لقد تركتيني قبل الأوان».

«كنتَ غاضباً مني».

«لا».

وَمَضَت عيناها.

«طيّب. نعم».

قالت: «كان هناك سببٌ وراء كل ذلك».

قال: «أيّ سبب. كيف يمكن أن يكون هناك سبب؟ لقد مِتِّ. كنتِ في السابعة والأربعين. كنتِ أفضل شخص عرفه كلانا، ومتِّ وفقدتِ كل شيء. وفقدتُ أنا كل شيء. فقدتُ المرأة الوحيدة التي أحببتها في حياتي».

تناولت يديه. «لا، لم تفقدها. لقد كنتُ هنا. وقد أحببتَني بأي حال.

«الحب الضائع يظلُّ حباً يا إيدي. يتخذ شكلاً مختلفاً، هذا كل ما في الأمر. لا تستطيع أن ترى ابتسامة حبيبك أو تجلب له الطعام أو تداعب شعره أو تراقصه. لكن عندما تضعَف هذه الحواس، تقوى حواسٌ أخرى. الذاكرة. الذاكرة تصبح شريكتك. تُغذّيها. تَقبض عليها. تُراقصها».

قالت: «الحياة يجب أن تنتهي. لكن الحب لا».

فكّر إيدي في السنوات التي تَلَت دفنِ زوجته. كانت أشبه بالنظر من فوق سور. كان واعياً بوجود نوعٍ آخر من الحياة، وإن عَرفَ أنه لن يكون جزءاً منها.

قال بصوت خفيض: «لم أرغب في أيِّ إنسان آخر».

قالت: «أعرف».

«كنتُ ما أزال أحبك».

أومأت برأسها: «أعرف. لقد شعرتُ بحبك».

سألها: «هنا؟».

قالت، مبتسمة: «حتى هنا. هكذا يمكن أن يكون الحبُّ القوي الضائع».

نهضت وفتحت باباً، وطرفَ إيدي عينَيه وهو يدخل وراءها. كانت غرفةً معتمة الإضاءة، بها كراسي قابلة للطيّ، وعازف أكورديون يجلس في الركن.

قالت: «استبقيتُ هذه».

فردّت ذراعيها. وللمرة الأولى في الجنة، بادرَ بالوصال. جاءها، متجاهلاً ساقه، متجاهلاً كل المشاعر السيّئة التي ربطها بالرقص والموسيقى وحفلات الزفاف، مدركاً الآن أنها كانت -في حقيقتها- مشاعر وِحدة ليس إلّا.

همست مارغريت، وهي تضع يدها على كتفه: «لا ينقصنا إلّا توزيع بطاقات الـ«بِنجو»».

ابتسم ابتسامة واسعة ووضع يده وراء خصرها.

قال: «هل أسألكِ شيئاً؟».

«نعم».

«كيف تبدين كما كنتِ تبدين يوم تزوجتُكِ؟».

«فكرتُ أنك ستحب هذا».

فكر للحظة. «هل يمكنك تغييره؟».

بدت متسلّية: «تغييره؟ إلى ماذا؟».

«إلى النهاية».

خفضت ذراعيها. «لم أكن جميلة في النهاية».

هزّ إيدي رأسه، وكأنه يقول ليس صحيحاً.

«هل تسمحين؟».

أخذت لحظة، ثم عادت ثانية إلى ذراعيه. لعب عازف الأكورديون النغمات المألوفة. همهمت في أذنه ثم بدآ يتحرّكان معاً، ببطء، في إيقاع ذكرى لا يتقاسمه الزوجُ إلّا مع زوجته.

جعلتني أحبك
ولم أكن أريد
لم أكن أريد. . .
جعلتني أحبك
وكنت تعرف طوال الوقت
وكنت تعرف طوال الوقت

عندما أرجعَ رأسه إلى الخلف، كانت في السابعة والأربعين ثانيةً، شَبَكةُ الخطوط بجوار عينيها، الشعرُ الأخفّ، الجلدُ الأكثر رخاوة تحت ذقنها. ابتسمَت وابتسمَ، وكانت، بالنسبة إليه، جميلة كما كانت دائماً، وأغمض عينيه وقال للمرة الأولى ما ظلّ يشعر به منذ رآها من جديد: «لا أريد أن أُكمل. أريد أن أبقى هنا».

عندما فتح عينيه، كانا ذراعاه لا يزالان يحيطان بهيئتها، لكنها اختفت، واختفى معها كل شيء آخر.

الجمعة، 3:15 مساءً

ضغط دومينغيز على زرّ المصعد فانغلق الباب بدَمْدمة. كُوّة داخلية مبطّنة بكُوّة خارجية. ارتجّت العربة وانطلقت إلى أعلى، وعَبْر الزجاج المقوّى بالأسلاك راح يراقب البهو وهو يختفي.

قال دومينغيز: «لا أصدق أن هذا المصعد لا يزال يعمل. لا بدَّ أنه من القرن الماضي أو نحو ذلك».

أومأ الرجل الواقف بجواره، محامي التركات، برأسه بخفّة، متظاهراً بالاهتمام. خلع قبعته -كانت خانقة وكان يتعرّق- وراقب الأرقام وهي تضيء على اللوحة النحاسية. كان هذا موعده الثالث في ذلك اليوم. موعدٌ واحد آخر ويستطيع بعدها العودة إلى بيته لتناول العشاء.

قال دومينغيز: «إيدي لم يكن يمتلك الكثير».

قال الرجل، وهو يمسح جبينه بمنديل: «مممم. إذاً لن يستغرق الأمر طويلاً».

ارتجّ المصعد وهو يتوقف ودمدَم الباب وانفتح، واستدارا باتجاه 6 (ب). كانت الردهة لا تزال مبلّطة بالبلاط ذي المربعات البيضاء والسوداء الذي يرجع إلى الستينيات، وتصاعدت رائحة طبيخ -ثوم وبطاطس محمَّرة. كان مدير البناية قد أعطاهما المفتاح- ومعه موعدٌ نهائي. الأربعاء القادم. اخلوا المكان من أجل مستأجر جديد.

«واو. . .»، قالها دومينغيز، عندما فتحا الباب ودخلا المطبخ. «بيت مرتَّب جيداً بالنسبة إلى رجل عجوز». كان حوض الغسيل

نظيفاً. كانت المناضد ممسوحة. وفكّر: يعلم الربّ أن شقّته هو لم تكن منظّمة إلى هذا الحدّ قَطّ.

سأل الرجلُ: «أوراقٌ ماليّة. بياناتٌ مصرفيّة؟ مجوهرات؟».

فكّر دومينغيز في إيدي وهو يتزيّن بالمجوهرات فكاد يضحك. أدرك كم يشتاق للرجل العجوز، كم كان غريباً ألّا يجده بجواره في الملاهي، يصيح بالأوامر، يراقب كل شيء مثلما تراقب أنثى الصقر صغارها. لم يفرغوا خزانة أمتعته. لم يجد أحدهم الشجاعة لذلك. فقط تركوا أغراضه في الورشة، حيث كانت، وكأنه سيرجع غداً.

«لا أعرف. هل نظرتَ في هذا الشيء في غرفة النوم؟».

«الكومود؟».

«نعم. تعرف. أنا شخصياً لم أدخل هنا إلّا مرة واحدة. أنا لا أعرف إيدي حقّاً إلّا من خلال العمل».

انحنى دومينغيز على «الكومود» ونظر من نافذة المطبخ. رأى لعبة الخيول الدوّارة القديمة. نظر في ساعته. قال لنفسه: **على ذِكر العمل!**

فتح المحامي الدُّرج العلويّ لـ«كومود» غرفة النوم. أزاح جانباً الجوارب، المكوَّرة بنظام، كل فردة بداخل قرينتها، والملابس الداخلية، سراويل بيضاء قصيرة، مرصوصة فوق بعضها بعناية. تحتها علبة قديمة ذات غلاف جلدي، يبدو عليها الأهمية. فتحها على أمل العثور على شيء بسرعة. عبسَ. لا شيء مهم. لا بيانات مصرفية. لا وثائق تأمين. مجرد ربطة عنق سوداء، قائمة مطعم صيني، دِكّة قديمة من أوراق اللعب، خطاب ومعه قلادة عسكرية، وصورة كاميرا بولارويد باهتة لرجل بجوار كعكة عيد ميلاد، محاطاً بأطفال.

نادى دومينغيز من الغرفة الأخرى: «إيه، هل هذا ما تبحث عنه؟».

خرج بحزمة من الأظرف أخرجها من أحد أدراج المطبخ، بعضها من بنك محليّ، والبعض الآخر من إدارة قدامى المحاربين. تصفَّحها المحامي وقال، دون أن يرفع عينيه: «هذه ستفي بالغرض». أخرج أحد البيانات المصرفية وحسبَ الحساب النهائي في عقله. ثم، مثلما يحدث عادة في تلك الزيارات، هنّأ نفسه بصمتٍ على حافظته الخاصة من الأسهم، والسندات، وخطة التقاعد المُكتسبَة. أمر غير مفهوم بكل تأكيد أن ينتهي المرء مثل هذا المسكين، بلا شيء يثير الإعجاب إلّا مطبخاً جيّد الترتيب.

خامس شخص يقابله إيدي في الجنة

بياضٌ. لا شيءَ الآن إلّا البياض. لا أرضَ، لا سماءَ، لا أفقَ بينهما. فقط بياضٌ صافٍ وساكن، صامتٌ مثل ثلج غزير يهطل في شروق هادئ.

البياض كان كلّ ما رآه إيدي. كل ما سمعه كان أنفاسه الجهيدة، يعقبها صدىً لتلك الأنفاس. كان يشهق فيسمع شهيقاً أعلىَ. يزفر فيسمع زفرةً أخرى.

أغمض إيدي عينَيه وضغطهما بقوة. يسوء الصمت عندما تعرف أنه لن ينكسر، وكان إيدي يعرف. لقد رحلت زوجته. أرادها باستماتة، لدقيقة واحدة أخرى، نصف دقيقة، خمس ثوانٍ أخرى، لكن لم يكن هناك سبيل للوصول إليها، ولا مناداتها، ولا التلويح لها ولا حتى النظر إلى صورتها. شعر وكأنه تعثَّر ساقطاً الدرج وأنه الآن ملتفٌ حول نفسه في القاع. روحه فارغة. ليس لديه نبضٌ. كان معلّقاً، أعرج وخالياً من الحياة، في الفراغ، وكأنما من خُطّاف، وكأنه طُعن فتسرَّبَت كل سوائل جسده خارجة. لعلّه عُلّق هنا ليوم أو شهر. لعلّه هنا منذ قرن.

فقط لدى سماع تلك الأصوات الصغيرة، إنما المؤرِّقة، تململ، وانفتحت أجفانُه بتثاقُل. لقد زار أربع مناطق من الجنة، قابل أربعة أشخاص، ومع أن الحيرة أصابته لدى رؤية كل منهم، فقد أحسَّ أن هذا الشخص الخامس يختلف عن كل من سبقوه.

تناهت رعشة الصوت ثانية، صارت أعلى الآن، وضمَّ إيدي قبضته، في غريزة دفاعيّة ظلت معه طوال حياته، ففوجئ أن يده اليمنى تقبض على عصاً. كانت بقع الشيخوخة تتناثر على ساعدَيه. أظافره صغيرة ومصفرَّة. ساقاه العاريتان عليهما ذلك الطفح المحمرّ -القوباء- الذي أصابه أثناء أسابيعه الأخيرة في الحياة الدنيا. أشاح بصره عن تحلُّله المتسارع. بالحساب البشريّ، كان جسدُه يقترب من نهايته.

الآن أتى الصوت ثانية، موجات من الصيحات والأغاني الطفوليّة المشوَّشة، سبق لإيدي أن سمع هذا الصوت في كوابيسه، وارتجف من الذكرى: القرية، النار، سميتي وصراخه، الوَقْوَقة الحادة التي خرجت، في النهاية، من حلقه هو، عندما حاول أن يتكلم.

صرَّ على أسنانه، وكأن هذا سيجعل الأصوات تتوقف، لكنها استمرّت، مثل جرس إنذار لا يجد أذناً صاغية، حتى صرخ إيدي في البياض الخانق: «**ما هذا؟ ماذا تريد؟**».

بهذا، انتقل الصوت العالي إلى الخلفية، مُشكّلاً طبقة تعلو صوتاً ثانياً، دمدمة عنيدة، سائبة -صوت نهر جارٍ- وتقلَّص البياض إلى بقعة شمسيّة تعكس مياهاً متلألئة. ظهرت الأرض تحت قدمَي إيدي. لمست عصاه شيئاً جامداً. كان يقف عالياً فوق سدٍّ على ضفة نهر، حيث يهبّ نسيمٌ على وجهه وشبّورة تُحوّل جلده إلى لمعة

رطبة. نظر إلى أسفل ورأى، في النهر، مصدر تلك الصرخات المؤرِّقة، واجتاحه ارتياحُ رجلٍ يكتشف، وهو يقبض على مضرب بيسبول، أنه ما من دخيل تسلَّل إلى منزله. كان الصوت، هذا الصراخ، الصفير، الصرير المدَمْدِم، مجرد نشازٍ من أصوات أطفال، آلاف الأطفال يلعبون، ينثرون الماء في النهر ويصرخون بضحك بريء.

فكّر: **أهذا ما ظللتُ أحلم به؟ طوال الوقت؟ لماذا؟** عاين الأجساد الصغيرة، بعضها يقفز، بعضها يخوض في الماء، بعضها يحمل دلاءً وآخرون يتقلّبون وسط الحشائش الطويلة. لاحظ هدوءاً ما في كل هذا، لا خُشونة، مثل تلك التي تراها عادة بين الأطفال. لاحظ شيئاً آخر. لم يكن هناك بالغون. ولا حتّى مراهقين. كانوا جميعاً أطفالاً صغاراً، لهم جلود بلون الخشب الداكن، لا أحد يحرسهم أو يراقبهم فيما يبدو.

ثم انجذبت عينا إيدي إلى جُلمودٍ أبيض. إلى فتاة نحيلة تقف فوقه، بعيداً عن الآخرين، تنظر باتجاهه. حرّكت كلتا يديها، تُلوّح له. تردَّدَ. ابتسمَت. لوَّحَت له ثانية وأومأت برأسها، وكأنها تقول: **نعم، أنت.**

خفض إيدي عصاه لكي ينزل المنحدر. انزلَق. التَوَت ركبته المصابة، زلّت ساقاه. لكنْ قبل أن يصطدم بالأرض، شعر بعصفةِ ريح مفاجئة في ظهره، قوةٌ دفعته إلى الأمام ثم عدلته على قدميه، ووجد نفسه يقف أمام الفتاة الصغيرة، وكأنه ظلّ هناك طوال الوقت.

اليوم عيد ميلاد إيدي

إنه في الحادية والخمسين. اليوم سبتٌ. إنه أول عيد ميلاد له من دون مارغريت. يُعدّ قهوة سريعة التحضير خالية من الكافيين في كأس ورقيّ، يأكل قطعتين من الخبز المحمَّص مع المارجرين. في السنوات التي أعقبت حادثة زوجته، ظَلّ إيدي ينفض كل اقتراح بالاحتفال بعيد ميلاده، يقول: «لماذا يجب أن أتذكر ذلك اليوم؟». كانت مارغريت هي التي تُصرّ. تصنع الكعكة. تدعو الأصدقاء. تشتري كيساً من التوفي وتربطه بشريط. تقول: «لا يمكنك أن تتخلى عن عيد ميلادك».

الآن، بعد أن رحلَت، يحاول إيدي. في العمل، يربط نفسه إلى انعطافةٍ في القطار الأفعوانيّ، عالياً ووحيداً، مثل مُتسلّق جبال. في الليل، يشاهد التلفاز في الشقة. يذهب إلى الفراش مبكراً. لا كعكة. لا ضيوف. ليس من الصعب أن تتصرّف بشكلٍ عاديّ إذا كنت تشعر بأنك عاديّ. هكذا يصبح اللون الشاحب للاستسلام هو اللون المميِّز لأيام إيدي.

إنه في الستين، اليوم أربعاء. يصلُ إلى الورشة مبكّراً. يفتح كيسَ غداءٍ بنّي ويُخرج قطعة سجق من ساندويتش. يُعلّقها بخطّاف، ثم يُسقط الخيط في فتحة الصيد. يراقبها تطفو. في النهاية، تختفي، وقد ابتلعها البحر.

إنه في الثامنة والستين، اليوم سبت. يبسط أقراص الدواء على المنضدة. يرنّ الهاتف، جو، شقيقه، يهاتفه من فلوريدا. يتمنّى له جو عيد ميلاد سعيد. يتكلّم جو عن حفيده. يتكلم جو عن شقّة. يقول إيدي «آه-ها» خمسين مرة على الأقل.

إنه في الخامسة والسبعين، اليوم اثنين. يضع نظّارته ويراجع تقارير الصيانة. يُلاحظ أن شخصاً قد فوَّت وردية الليلة السابقة وأن فرامل لعبة «الدودة الملتوية المتعرجة» لم تُختبر. يتنهّد ويأخذ لافتةً من على الحائط -اللعبة مغلقة مؤقتاً للصيانة- ثم يحملها ويسير بها على الممشى الخشبي إلى مدخل «الدودة الملتوية»، حيث يختبر لوحة الفرامل بنفسه.

إنه في الثانية والثمانين، اليوم ثلاثاء. يصل تاكسي إلى مدخل الملاهي. ينزلق إلى المقعد الأمامي، ساحباً عصاه وراءه.

يقول السائق: «معظم الناس يحبّون الجلوس في الخلف».

يسأله إيدي: «هل تُمانع؟».

يهز السائق كتفيه. «لا، لا أمانع». ينظر إيدي أمامه. لا يقول إن هذا يشعره بأنه هو الذي يقود، وهو لم يَقُد سيارة منذ رفضوا إعطائه رخصة قبل ستتين.

يأخذه التاكسي إلى المقابر. يزور قبر أمه وقبر أخيه ويقف بجوار قبر أبيه لبضع لحظات فحسب. كالعادة، يستبقي زوجته للنهاية. ينحني على العصا وينظر إلى شاهد القبر ويفكّر في أشياء عديدة. التوفي. يفكر في التوفي. يفكر أنه سيجعل أسنانه تسقط الآن، لكنه سيأكله بأي حال، إن كان سيأكله معها.

الدرس الأخير

بَدَت الفتاة الصغيرة آسيوية الملامح، ربما في الخامسة أو السادسة من عمرها، لها بشرة جميلة بلون القرفة، وشعر بلون البرقوق الداكن، وأنف صغير مسطّح، وشفتان ممتلئتان تفترّان بمرحٍ عن أسنانٍ متباعِدة، وعينان آسرتان للغاية، سوداوان كجلد الفقمة، لكلّ منهما بؤبؤ أبيض بحجم رأس الدبوس. ابتسمَت ورفرفَت بيديها بحماس حتى اقترب منها إيدي خطوةً، فقدّمت نفسها.

«تالا»، قالتها تُعرِّفه باسمها، وكفَّاها على صدرها.

كرّر إيدي: «تالا».

ابتسمت وكأن لعبةً قد بدأت. أشارت إلى البلوزة المطرّزة، المسترسلة فوق كتفيها والمبلّلة بماء النهار.

قالت: «بارو».

«بارو».

لمست القماش الأحمر المنسوج الذي يلفّ جذعها وساقيها.

«سايا».

«سايا».

ثم جاء دور حذائها الذي يشبه القبقاب -«باكيا»- ثم الأصداف القزحيّة متقلّبةُ الألوان إلى جوار قدميها -«كابيز»- ثم حصيرةٌ من الخيزران المجدول -«بانيج»- كانت مبسوطة أمامها. أشارت إلى إيدي لكي يجلس على الحصيرة وجلست هي أيضاً، ساقاها ملفوفتان تحتها.

لم يَبدُ أن أحداً من الأطفال الآخرين قد لاحظهما. ظلوا يرشّون الماء ويتقلّبون ويجمعون الأحجار من قاع النهر. راقب إيدي أحد الأولاد وهو يفرُك جسد طفلٍ آخر بحَجَر، ظهره، وتحت إبطيه.

قالت الفتاة: «غسيل. مثلما تفعل إينا».

قال إيدي «إينا؟».

تفحَّصت وجه إيدي.

«ماما».

سمع إيدي أطفالاً كثيرين في حياته، لكن في صوت هذه الطفلة، لم يتعرّف إلى أي قَدْر من ذلك الترَدُّد الطبيعي تجاه الكبار. تساءل إن كانت هي وبقية الأطفال قد اختاروا هذه الجنة على ضفّة النهر، أم أن هذا المنظر الذي تشمله السكينة أُختير لأجلهم، بالنظر إلى ذاكراتهم القصيرة.

أشارت إلى جيب قميص إيدي. نظر إلى أسفل. أعواد تنظيف الغليون.

قال: «هذه». سحبها ولَوّاها معاً، كما كان يفعل في أيامه في الملاهي. نهضَت جالسة على ركبتيه لتراقب العملية. كانت يداه ترتجفان. «هل ترين؟ إنه...»، أنهى الثنيةَ الأخيرة. «... كلب».

تناولته وابتسمت - ابتسامة رآها إيدي ألف مرة من قبل.

قال: «هل يُعجبك؟».

قالت: «أنتَ يَحرقني».

شعر إيدي بفكّه يتصلب.

«ماذا قلتِ؟».

«أنتَ يَحرقني، أنتَ يَجعلني نار».

كان صوتها رتيباً، مثل طفلة تتلو درساً.

«إينا تَبعي تقول انتظري داخل النيبا. إينا تَبعي تقول اختبئي».

خَفَض إيدي صوته، كانت كلماتُه بطيئة ومتروّية.

«ما الذي... كنت تختبئين منه يا صغيرتي؟».

تحسَّسَت الكلب المصنوع من أعواد تنظيف الغليون، ثم غَطَّسَته في الماء.

قالت: «جولندي».

«جولندي؟».

رفعَت رأسها.

«جُندي».

شعر إيدي بالكلمة مثل سكّين في لسانه. ومضت الصور عبر رأسه. جنود. تفجيرات. مورتون. سميتي. الكابتن. قاذفات اللهب.

همس: «تالا...».

«تالا»، قالتها وهي تبتسم لنُطق اسمها.

«لماذا أنتِ هنا، في الجنة؟».

خفضت الحيوان.

«أنتَ يَحرقني. أنتَ يَجعلني نار».

شعر إيدي بطرقٍ وراء أذنه. بدأ الدم يضخُّ في رأسه. تسارعَت أنفاسه.

«كنتِ في الفلبين... الظِّلّ... في ذلك الكوخ...».

«النيبا. إينا تقول هناك أمَان. هناك انتظري. هناك أمَان. بعدها صوت قوي. نار قوي. أنتَ يَحرقني». هزّت كتفَيها الضيقتَين. «أمَان لا».

ابتلع إيدي ريقه. ارتعشَت يداه. نظر في عينيها السوداوين العميقتين وحاول الابتسام، وكأنه دواءٌ تحتاجه الفتاة الصغيرة. ردّت له ابتسامته، لكنّ هذا جعله ينهار. تداعى وجهه، ودَفَنه في كفّيه. انهارت كتفاه ورئتاه. العتمة التي ألقت عليه بظلالها طوال تلك السنوات صارت تكشف عن نفسها أخيراً، صارت حقيقية، من لحم ودمّ، هذه الطفلة، هذه الطفلة الجميلة، لقد قَتلها، أحرقها حتى الموت، الأحلام السيّئة التي ظلَّ يعاني منها، لقد استحقّ كل واحد منها. لقد رأى شيئاً بالفعل! ذلك الظلّ وسط اللهب! الموت على يديه! **على يديه النارِيّتَين!** تسرّب طوفان من الدموع بين أصابعه وأحسَّ بروحه تهوي من حالق.

ثم راح ينتحب، وتصاعد بداخله عواءٌ بصوتٍ لم يسبق له سماعه من قبل، عواءٌ من جوف وجودِه ذاته، عواءٌ رجّ مياه النهر وهزّ هواء الجنة المغبَّش. تشنَّج جسده، وانتفض رأسه بعنف، حتى تحوّل العواء إلى دمدمات تشبه الصلاة، كل كلمة تخرج في دفقة اعتراف منقطعة الأنفاس. «لقد **قتلتُكِ**. **لقد قتلتُكِ**»، ثم بهمس: «سامحيني»، ثم «**سامحيني، آه، يا ربّي...**»، وأخيراً، «ما الذي **فعلتُه... ما الذي فعلتُه؟...**».

بكى وبكى، حتى استنزفه البكاء فصار يرتعش. ثم راح يهتزّ

بصمت، يميل إلى الخلف والأمام. كان راكعاً على حصيرة أمام الفتاة الصغيرة داكنة الشعر، التي تلعب بحيوانها المصنوع من أعواد تنظيف الغليون على ضفّة نهرٍ جارٍ.

عند لحظة ما، بعد أن هدأ عذاب إيدي، شعر بنقرٍ على كتفه. رفع رأسه ليرى تالا تمسك حَجَراً.

قالت: «أنتَ يَغسلني». نزلَت الماء وأدارت ظهرها لإيدي. ثم رفعَت **البارو** المطرَّزة فوق رأسها.

أجفَلَ. كان جلدها محروقاً بصورة مروّعة. جذعها وكتفاها الضيقتان سوداوان ومتفحّمتان ومتقرّحتان. عندما استدارت، كان الوجه الجميل البريء مغطىً بندوب بشعة. تهدلت شفتاها. عين واحدة فقط كانت مفتوحة. كان شعرها قد سَقَط في رُقَعٍ من الفروة المحروقة، المغطّاة الآن بقشور صلبة مُبرقَشة.

كرَّرَت، وهي تمدُّ إليه الحَجَر: «أنتَ يَغسلني».

جرجَر إيدي نَفْسه إلى داخل النهر. أمسك بالحجر. ارتعشت أصابعه.

دمدَم، بصوت مسموع بالكاد: «لا أعرف كيف... لم أُنجب أطفالاً...».

رفعت يدها المتفحّمة فأمسكها إيدي بلطف وراح يحكّ الحجر ببطء على ساعدها، حتى بدأت الندوب تتفكّك. حكّ بقوة أكبر؛ تقشَّرَت وسقطَت. سارع جهوده حتى سقط الجلد المسفوع وظهر اللحم السليم من تحته. ثم قَلَب الحجر وحكّ ظهرها بارز العظام وكتفيها الصغيرتين ومؤخرة رقبتها وأخيراً خديها وجبينها والجلد وراء أذنيها.

مالت إلى الخلف مستندةً عليه، مُريحةً رأسها على تُرقوَته، مغمضةً عينيها وكأنها في إغفاءة. مرّر أصابعه برقّة على الأجفان. فعل الشيء نفسه بالشفتين المتهدلتين، بالبقع القشريّة على رأسها، حتى خرج الشعر الذي بلون البرقوق من الجذور وصار الوجه الذي رآه من قبل أمامه من جديد.

عندما فتحت عينيها، كان بياضهما يومض مثل منارة. همست: «أنا خمسة».

أنزل إيدي الحجر وارتجف في أنفاس قصيرة لاهثة. «خمسة... آه-ها... خمس سنين؟...».

هزّت رأسها أن لا. رفعت خمسة أصابع. ثم دفعتها في صدر إيدي، وكأنما تقول. خمسة لك أنتَ. شخصُك الخامس.

هبَّ نسيم دافئ. انحدرت دمعة على وجه إيدي. تفحَّصتها تالا كما يتفحَّص طفلٌ حشرةً وسط العشب. ثم تحدّثت إلى المسافة بينهما.

قالت: «لماذا حزين؟».

هَمَس. «لماذا أنا حزين؟ هنا؟».

أشارت إلى أسفل. «هناك».

نَشجَ إيدي، نشجةً أخيرة خاوية، وكأن صدره صار فارغاً. تخلّى عن حواجزه كلها؛ لم يعد يتكلم كما يتكلم الكبير إلى الصغير. قال ما قاله من قبل، لمارغريت، لروبي، للرجل الأزرق، و، أكثر من أي شخص، لنفسه.

«كنت حزيناً لأنني لم أفعل أي شيء بحياتي. كنتُ نكرة. لم أحقّق شيئاً. كنتُ ضائعاً. وشعرتُ أنني لم يُفترَض أن أكون هناك».

أخرجت تالا الكلب المصنوع من أعواد تنظيف الغليون من الماء.

قالت: «يُفترَض أن تكون هناك».

«أين، في روبي بير؟».

أومأت برأسها.

«أُصلح الألعاب؟ ذلك كان وجودي؟». زَفَر نفساً قويّاً. «لماذا؟».

أمالت رأسها، وكأن الجواب واضح.

قالت: «الأطفال. أنت تحافظ على سلامتهم. أنت تصنع لي شيء جيد».

هزَّت كَلبَها على قميصه.

«هناك يُفترض أن تكون»، قالتها، ثم لمست الشارة على قميصه بضحكة صغيرة وأضافت كلمتين: «إيدي صي-ا-نة».

غَطَس إيدي في الماء المتدفّق. كانت أحجارُ قصصه الآن من حوله، تحت السطح، كل منها يلمس الآخر. شعر بهيئته تذوب، تتحلّل، وأحس أن أوانه اقترب، أن ما سيأتي بعد الأشخاص الخمسة الذين تقابلهم في الجنة، أيّاً كان ذلك، سيحلُّ به الآن.

همسَ: «تالا؟».

رفعت رأسها.

«الفتاة الصغيرة في الملاهي؟ هل تعرفين أمرها؟».

حدَّقت تالا في أناملها. أومأت بالإيجاب.

«هل أنقذتُها؟ هل سحبتُها بعيداً؟».

هزت تالا رأسها. «يسحب لا».

ارتجف إيدي. سقط رأسه. هكذا إذاً. نهاية القصة.

قالت تالا: «يدفع».

رفع رأسه: «يدفع؟».

«يدفع ساقيها. لا يسحب. أنتَ يَدفع. شيء كبير يَسقط. أنتَ يُنقذها».

أغمض إيدي عينَيه في إنكار. قال: «لكنني شعرت بيديها. إنه الشيء الوحيد الذي أتذكره. لا يمكن أن أكون قد دفعتها. لقد شعرتُ بيديها».

ابتسمت تالا واغترفَت ماءً من النهر، ثم وضعت أصابعها الصغيرة المبلَّلة في قبضة إيدي الكبيرة. عَرَف على الفور أنها كانت هناك من قبل.

قالت: «لا يدها. يدي أنا. أنا يُحضرك إلى الجنة. أنا يحافظ على سلامتك».

بهذا، ارتفع النهر بسرعة، محيطاً بخصر إيدي وصدره وكتفَيه. قبل أن يتمكن من سحبِ نَفَسٍ آخر، اختفى صخب الأطفال من فوقه، ووجد نفسه مغموراً في تيار قوي إنما صامت. كانت قبضته لا تزال مشبوكة بيد تالا، لكنه شعر أن جسده يُغسل، روحاً ولحماً وعظماً، ومعه ذهب كلُّ ألمٍ وهمٍّ ظلّ يكنّه في داخله، كلُّ ندبة، كلُّ جرح، كلُّ ذكرى سيّئة.

الآن، أصبح لا شيء، ورقة شجر في الماء، وسحبَتَه تالا برقّة، عبر الظِّلّ والنور، عبر درجات الأزرق والعاجي والليموني والأسود، وأدرك أن كل الألوان، كلها، ما هي إلّا مشاعر حياته.

سحبَته عبر الأمواج المتكسّرة لمحيط رمادي هائل وخرج في ضوء ساطع بالأعلى ومنظرٍ يستعصي على الخيال:

كانت هناك حديقة ملاهٍ على رصيف بحري، تعجُّ بآلاف الناس، رجالاً ونساءً، آباءً وأمهات وأطفالاً -أطفالاً كُثراً جدّاً- أطفالاً من الماضي والحاضر، أطفالاً لم يولدوا بعد، جنباً إلى جنب، يداً في يد، في طواقي، في سراويل قصيرة، يملأون الممشى والألعاب والمنصّات الخشبية، يجلسون متّكئين بعضهم على أكتاف بعض، يجلسون في بعضهم حُجور بعض. كانوا هناك، أو سيكونون هناك، بسبب الأشياء العادية البسيطة التي فعلها إيدي في حياته، الحوادث التي منعها، الألعاب التي حافظ على سلامتها، المنعطفات التي لا تُلاحَظ، التي أثَّرَ فيها كل يوم. ورغم أن شفاههم لم تتحرك، سمع إيدي أصواتهم، أصوات أكثر ممّا تخيَّل، وحطَّت عليه سكينة لم يعرفها من قبل. كان حرّاً من قبضة تالا الآن، وكان يُحلّق فوق الرمل وفوق الممشى، فوق قِمم الخيام والأبراج المستدقّة لمنطقة العروض، باتجاه قمة «الساقية العملاقة» البيضاء، حيث ثمّة عربة، تتأرجح برقّة، تحمل امرأةً في فستان أصفر - زوجته، مارغريت، تنتظرُ وذراعها ممدودتان. مدّ ذراعَيه إليها ورأى ابتسامته وذابت الأصوات في كلمة واحدة من الربّ:

الدبار.

خاتمة

أعيد افتتاح ملاهي روبي بير بعد ثلاثة أيام من الحادثة. ظهرت قصة موت إيدي في الصحف لمدة أسبوع، ثم حلَّت محلّها قصص أخرى عن ميتات أخرى.

أُغلقت اللعبة المسماة «هاوية فريدي» لبقية الموسم، لكنها افتُتحت في العام التالي باسم جديد، «مَسْقط الشجعان». صار المراهقون يرونها علامة على الجرأة، واجتذبت عدّة زبائن، وسُرَّ المُلّاك.

شقة إيدي، تلك التي نشأ فيها، أُجِّرَت لشخص آخر، وَضَع زجاجاً مرصَّصاً في نافذة المطبخ، ما أغبَشَ رؤية لعبة الخيول الدوّارة القديمة. دومينغيز الذي قَبِلَ تولّي وظيفة إيدي، وَضَع ممتلكات إيدي القليلة في صندوقٍ في ورشة الصيانة، جنباً إلى جنب مخلّفات تذكاريّة من روبي بير، من بينها صُور المدخل القديم.

نيكي، الشاب الذي كان مفتاحُه قد قَطَع السلك، صنعَ مفتاحاً آخر عندما رجع إلى بيته، وباع سيارته بعدها بأربعة أشهر. ظلَّ يتردّد

على روبي بير، حيث يتباهى أمام أصدقائه أن جدَّته الكبرى هي المرأة التي سُمِّيت الملاهي باسمها.

جاءت مواسم وذهبت مواسم. وعندما انتهت الدراسة في المدارس وطالَت النهارات، عادت الحشود إلى حديقة الملاهي بجوار المحيط الرمادي الهائل - حديقة ليست كبيرة مثل مدن الملاهي، لكنها كبيرة بما يكفي. يأتي الصيف، تنتعش الأرواح، ويتراقص حصان البحر على أنغام الأمواج، ويتجمّع الناس من أجل الخيول الدوّارة والساقية العملاقة والمشروبات المثلّجة الحلوة وغَزْل البنات.

تصطف الطوابير في روبي بير - بينما يتشكَّل طابورٌ في مكان آخر: خمسة أشخاص، ينتظرون، في خمس ذكريات مختارة، فتاةٌ صغيرة اسمها إيمي أو آني لكي تكبر وتحب وتتقدم في العمر وتموت، لكي تحظى أخيراً بإجابات عن أسئلتها - لماذا عاشت ولأجل ماذا. وفي ذلك الطابور الآن كان شيخٌ مسنٌّ ذو لحية نابتة، بطاقيّة من الكتّان وأنف معقوف، ظَلّ ينتظر في مكان يسمّى «مسرح غبار النجوم» ليشارك الجزء الخاص به من سرّ الجنة: أن كلّ إنسان يؤثر في آخر والآخر يؤثر في التالي، والعالم مليء بالقصص، لكنّ كلّ القصص إنْ هي إلّا قصة واحدة.

شكر وعرفان

يودُّ المؤلّف أن يشكر فيني كورتشي، من ملاهي «أميوزمينت أوف أميركا»، ودانا وايت، مديرة العمليات في ملاهي «باسيفيك بارك» على رصيف سانتا مونيكا البحري. لقد كانت مساعدتهما في البحث الخاص بهذا الكتاب لا تُقدَّر بثمن، وفخرُهما بحماية زبائن الملاهي محمودٌ وجديرٌ بالثناء. والشكر موصول للدكتور ديفيد كولون، من مستشفى هنري فورد، على المعلومات المتعلّقة بجروح الحرب، ولكيري ألكسندر، التي تتولى كلّ شيء تقريباً. وتقديري العميق لبوب ميلر، وإيلين آرتشر، ووِل شوالب، وليزلي ويلز، وجين كومينز، وكاتي لونغ، ومايكل بوركن، وفيل روز على إيمانهم الملهِم بي؛ إلى ديفيد بلاك، على أفضل علاقة يمكن أن تكون بين مؤلّف ووكيله؛ وإلى جانين، التي ظلّت تستمع إلى هذا الكتاب بصبرٍ وهو يُتلى عليها، مرات تلو مرات؛ وإلى رودا، وإيرا، وكارا، وبيتر، الذين شاركتُهم أول ركوب في لعبة «الساقية العملاقة»؛ وإلى خالي، إيدي الحقيقي، الذي حكى لي قصصَه قبل أن أحكي قصصي بزمن طويل.

ميتش ألبوم

خمسة تقابلهم في الجنة

«القصة التي ستقرأها ما هي إلّا تخمين، أمنية، على نحو ما، أن يُدرِك الناس الذين لم يشعروا بأهميتهم هنا في الحياة الدنيا، كم كانوا مهمّين، وكم كانوا محبوبين».

❖❖❖

يشعر إيدي بنفسه سجيناً في حياة بلا معنى، يُصلح الألعاب في حديقة ملاهٍ تطلّ على المحيط، ويقضي أيامه في روتين مملّ من العمل، والوحدة، والحسرة. في عيد ميلاده الثالث والثمانين، يلقى مصرعه في حادثة مأسوية، ويصحو في الحياة الآخرة، حيث يكتشف أنّ الجنة ليست كما تخيّلها، بل هي مكان يقابلك فيه خمسة أشخاص كانوا في حياتك، ليفسّروا لك أموراً حاسمة لم تُدركها آنذاك.

واحداً بعد الآخر، يُجيب هؤلاء الأشخاص عن أسئلة إيدي الدنيوية ويوضحون له كم أنّ حياته -وكلّ حياة على وجه الأرض- مهمّة وذات معنى.

هكذا، نجد أنفسنا مستغرقين في قصة جميلة وملهمة، قصة تغيّر أفكارنا عن معنى الحياة، قصة نجد فيها عزاء ونتعلم من خلالها أن ننظر بعين مختلفة إلى انتكاسات الحياة وأوجه الظلم التي نظنّ أننا نتعرض لها.

إنها حكاية عن الحياة الدنيا، والحياة الآخرة، «حكاية ستلتهمها عندما تقع في الحب، حكاية ستُبقيها إلى جانبك عندما تشعر بالضياع، قصة سترجع إليها مرّة بعد أخرى، لأنها تتمتّع بسحر نادر يجعلك ترى نفسك والعالم من منظور جديد. هذه الرواية هي هدية للروح»، كما وصفَتْها الكاتبة آمي تان.

❖❖❖

«كتاب يتمتّع بقوة حقيقية تجعله يُلامس نفوس القرّاء، ويقدّم لهم العزاء والسلوان».

جريدة نيويورك تايمز

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com